من يملك هذا الخاتم؟

تأمُّلات في اسم الله الملك



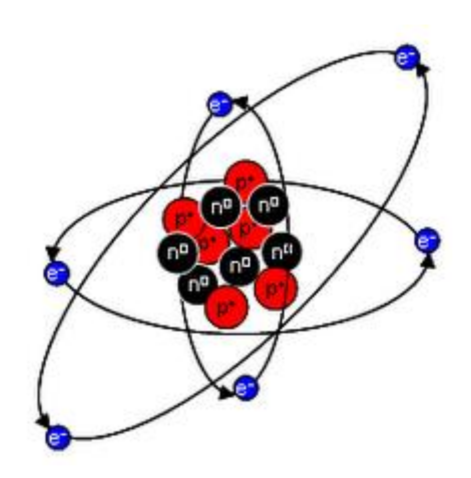
إكرامي عبدالعاطي

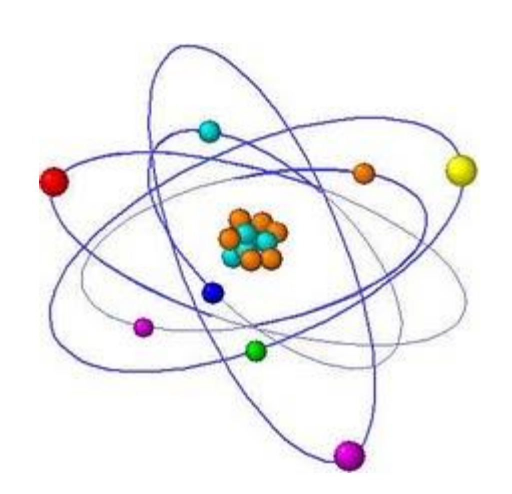
الألوكة
www.alukah.net





تأمُّلات في اسم الله (الملك)





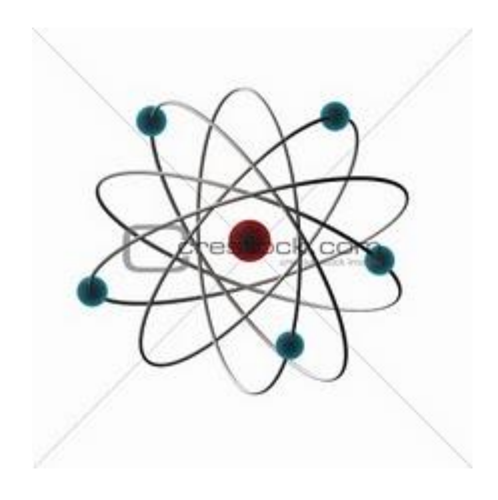
تأليف

إكرامي المحلاوي

قدَّم له

فضيلة الشَّيخ محمود عبد العظيم عيسى

إمام وخطيب مسجد أباظة بكفر الشَّيخ





مقدمة فضيلة الشيخ محمود عبدالعظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ابتعثه الله ليخرج العباد من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، فاللهم صلِّ وزد وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد

فإننا لو تأملنا القرآن العظيم لوجدناه يدور حول محاور خمسة: فالمحور الأول: يتكلم عن الله الواحد، المحور الثاني: يتكلم عن الكون الذي يدل على خالقه، المحور الثالث: عن القصص القرآني، المحور الرابع: عن البعث والجزاء، المحور الخامس: ميدان التربية والتشريع.

والمحور الثاني الذي يتكلم عن الكون الدال على خالقه محور أفاض القرآن في الحديث عنه، فلكم لفت أنظارنا الله إلى الكون وما فيه من أسرار فقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠]، بل والآيات كثيرة، وما أبلغ أن نختم الآيات بقوله تعالى إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون أو يتفكرون، فلو قلبنا أعيننا في الكون لوجدنا صنعة الله ناطقة ولكن أكثر الناس غافلون إنها عبادة من العبادات الجليلة أن نتفكر في خلق الله.

والكتاب الذي بين أيدينا لأخي الحبيب أبي سدرة إكرامي بن عبدالعاطي يأخذ طرف أعيننا لهذا الكون وما فيه من أسرار لنرى خاتم الله في كونه، لنرى خاتم المِلك في مُلكه، وأخي الحبيب له باع في هذا الموضوع فلقد قرأت له أجزاء من كتابه (هكذا عرفت الله)، هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يخرجه إلى النور، فأسأل الله أن يسدد خطاه وينفع به المسلمين.

وكتبه محمود بن عبدالعظيم عيسى

إمام وخطيب مسجد أباظة بكفر الشيخ

الأربعاء

٢٠١١/٧/٢٠م

١٩ شعبان ١٤٣٢هـ.





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله الذي على عرشه استوى، والحمدُ لله فالق الحبِّ والنَّوى، والحمدُ لله القائل (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علَّمه شديد القوى، وصلاةً وسلاماً على عبده ورسوله الذي لا ينطقُ عن الهوى، والذي به استقام أمر الدِّين واستوى.

أمَّا بعد

إنَّ مُلوك الدُّنيا عندما يكتبون الرَّسائل والمرسومات الملكيَّة لابدَّ وأن يُختم المرسوم الملكيّ بختم الملِك الرَّسمي حتَّى يكون تأكيداً أنَّه من عند الملِك وأنَّه ليس كلاماً مُلفَّقاً ومنسوباً إلى الملِك وذلك إمعاناً من الملِك في إقامة الحُجَّة على مَنْ يخالف حُكْمه أو أمره حتَّى لا يُنكِر مرسوم الملِك لذا فقد جعل خاتمه مميَّزاً عن غيره ولا يملكه سواه؛ لأنَّه لا يملك خاتم الملِك إلا الملِك نفسه. فمن يملك الختم يملك الختم به ويملك صكَّ الرَّسائل كيفما شاء لذا كان من تمام عزَّة الله أن منَّ على بعض عباده في الأرض بحمل اسم الملِك فينادَى به ويُمكَّن له في الأرض من خلال الاسم والصِّفة والتي يتبعها إصدار الأحكام والأوامر والنَّواهي المختومة بخاتم الملِك ونُفصِّل ما أجملنا بقولنا: إنَّ الله جلَّ في عُلاه وهو ملِك الملوك [1] قد صكَّ لنا ملايين الرَّسائل والمرسومات الإلهيَّة في البرِّ والبحر والجوِّ وفي الحيِّ والميِّت وفي الشَّمس والقمر والنُّجوم فضلاً عمَّا في الحجر والشَّجر.. ففي أيٍّ من هذه الرَّسائل رُحت تبحث عن خاتم الملِك لوجدته ولكنَّه ليس خاتماً واحداً في نهاية المرسوم كما هو حال أختام ملوك الدُّنيا. لا بل إنَّك تجد الخاتم في كلِّ نقطة من نقاط ذلك المرسوم.. ولا تعجب إن قلت لك بأنَّ النُّقطة الواحدة من مراسيم ملِك الملوك في مثل نقطة نقطت بقلم تحوي عشرة ملايين ختم إلهي لا تراه عيناك! فتِّش عن مرسوم النَّبات تلقى كلَّ ورقة.. كلَّ جذر.. كلَّ ساق.. كلَّ زهرة.. كلَّ حبة.. كلَّ ثمرة بها نفس الختم.. فما هو هذا الخاتم وبم يتميز عن سائر الأختام؟

---

(1) ثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: يَطْوِى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ».[رواه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم ٧٢٢٨] وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بَيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ [**متفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة والجنة والنار ١٧٧٥] وفي الصحيحين أيضا من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّموَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلاَئِقِ عَلَى إِصْبَعٍ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ الزمر: ٦٧ [**متفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: صفة القيامة والجنة والنار ١٧٧٤].

واعترف الإنسان.. الخاتم آية!

قلنا بأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع خاتماً عجيباً على كلِّ مخلوقاته يتفرَّد من خلاله بأحقيَّته للمُلْك.. ذلك الختم هو الذَّرَّة، وتحديداً ذرَّة الهيدروجين.. هي ختم عجيب.. في كلَّ جُزء تفتِّش فيه في الشَّمس.. في القمر.. في النُّجوم.. في المجرَّات.. في الإنسان.. في الحيوان.. تجد نفس الختم. وكأنَّها رسالة علنيَّة لكلِّ من يشكّ في ألوهيَّة الله، ولكلِّ من يشكّ أنَّ هناك مخلوقات لغير الله.. ولعلَّه يأتِ باحثٌ ما مغمور ويقول: أفتِّش في هذا النَّبات فيجد خاتم الألوهيَّة، فيقول: لا.. بل في هذا الحيوان فيجد نفس الخاتم..فيركب البحر ويغوص في أعماقه، ويبحث في مائه.. في أملاحه.. في أسماكه وحيتانه.. في لآلئه وأصدافه.. في طحالبه ومرجانه.. فيجد نفس الخاتم.. فيقول: بل أطير في السَّماء فيُحلِّق في غلافها الجوِّيّ ويبحث في سُحُبها وطيرها وشُهُبِها فيجد نفس الخاتم فيكاد يُجن أخرجوني خارج الأرض فلعلِّي أجد على القمر هُدَى فيركب صاروخاً ويتَّجه للقمر فيجد براكيناً وحفراً وصخوراً بها نفس الخاتم وفجأة يصطدم بالقمر نيزكٌ كبير بعد أن قطع مسافات لا علم له بها في ظلمات الكون الفسيح المترامي الأطراف من حوله فيسارع إليه بأجهزته وبعد التَّحليل يجد نفس الخاتم. فيقول: لا إنَّ تلك المجرَّة البعيدة بها خاتمٌ مختلف لأصوِّبنَّ إليها أجهزتي الحسَّاسة التي تستطيع تمييز أطياف العناصر فيجد كلَّ عنصر له طيف وبين طيَّاته نفس الخاتم فينقلب إليه منظاره وتليسكوبه ومطيافه وبصره خاسئاً وهو حسير وعندها لا يجد مفراً من الإقرار بأنَّ من يملك هذا الخاتم هو المِلك الحقّ هو المِلك الحقّ.. المِلك الذي له بصمة في كلِّ شيء وفي كلِّ مكان قريب أم بعيد دلَّ على أنَّه له سُلطة هُنا وهُناك وله هيمنة هُنا وهُناك وله الملك كلّه ظاهره وباطنه. لذا يقول النَّبيِّ ﷺ كما جاء من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ: [1] وعند مُسلم عنه أيضاً ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ ». زَادَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي رِوَايَتِهِ « لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ». قَالَ الأَشْعَثِيُّ قَالَ سُفْيَانُ مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ سَأَلْتُ أَبَا عَمْرٍو عَنْ أَخْنَعَ فَقَالَ أَوْضَعَ.[2]

---

[1] **متفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك رقم ١٣٨٥. وأخنع: أي أوضع وأذل وأقبح

[2] **صحيح**: رواه مسلم، كتاب الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك رقم ٥٧٣٤.



الله يتفرَّد بالملك

قال الله:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران: ٢٦

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة: ١٠٧

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران: ١٨٩

﴿... وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٧

﴿...وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ المائدة: ١٨

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ٤٠

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٢٠

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ التَّوبة: ١١٦

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ النُّور: ٤٢

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ١، ٢

﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزُّمر: ٤٤

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ الشُّورى: ٤٩

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزُّخرف: ٨٥

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ الجاثية: ٢٧

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ الفتح: ١٤

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد: ١-٣

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ الحديد: ٥

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ البروج: ٨، ٩

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ ﴾ النَّاس: ١-٣



تأمُّلات في آية الملك

يقول الملِك سُبحانه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الملك: ١
يخبرنا ربُّنا في هذه الآية بعد أن مجَّد نفسه أنَّه بيده الملك وأنَّه على كلِّ شيءٍ في هذا الملك ليس فقط قادرا لا بل قديراً وهي صفة مبالغة في القدرة فلا يزيغ عن مُلكه شيء ولا يهرب من مُلكه شيء ولا يكون في مُلكه إلا ما يُريد ومُنذ خلق الله الكون وأنزل الكتب وأرسل الرُّسل لم يدَّع أحدٌ قطُّ من الجنِّ والإنس أنَّه يملك الملك أو جُزءًا من الكون فلم يدَّع أحد ملكه للأرض ولا للسَّماء ولا للكواكب ولا للنُّجوم أو المجرَّات بل لم يدَّع أحد قط مُلكه للذَّرَّة أو للإلكترون الدَّائر في فلكها وعليه فيظلَّ الله هو صاحب دعوى مُلكه للمُلك كلِّه إذ لا يوجد من ينازعه فيه سُبحانه. فإذا ثبت هذا وتقرَّر في الأذهان كان حقاً على كلِّ مُنصفٍ أن يُذعن ويقرَّ لله تفرُّده بالملك، لذا تحدَّى الله من ينكر ملكه للكون فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ الملك: ٣ وتأمَّل في الأمر ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟﴾ هل ترى من عيب في الملك هل ترى من نقصٍ هل ترى من شيء ليس على الوجه الذي ينبغي هل ترى من شيء خرج عن خلقنا إيَّاه أو حُكمنا إيَّاه أو قدرتنا عليه وقهرنا له وأخيراً هل ترى من شيء ليس عليه أو فيه خاتمنا الملكي الذي يُثبت مُلكنا لكلِّ شيء ونفاذ أمرنا في كلِّ شيء وقدرتنا على كلِّ شيء ظاهراً وباطناً أولاً وآخراً؟ هل ترى من منطقة أو رسالة في السَّماوات أو في الأرض ليس عليها خاتمنا.. ثمَّ إمعاناً في التَّحدِّي أعاد الله جلَّ في عُلاه الأمر لئلا يتعذَّر الإنسان بقوله لم أدقِّق النَّظر.. لم أطوِّر أجهزتي.. لم أبحث جيِّداً.. لم أنتبه للأمر جيِّداً.. فسبق علم الله خواطر البشر لأنَّه خالقهم وخواطرهم قبل أن توجد سماؤهم وأرضهم. فقال ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ الملك: ٤ وتأمَّل في الفرق بين فاء ﴿ فَارْجِعِ ﴾ و ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ ﴾ فالأولى للنَّظر السَّريع والأخرى للتَّمهُّل والتَّراخي أي خُذ راحتك وتأمَّل وابحث وانظر بتأن وسكينة حتَّى يتبيَّن لك الحقُّ الذي هو حق رغم أنفك شئت أم أبيت يا إنسان لذا أعقبها بياء المضارع في ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ للدلالة على استمرار انقلاب البصر خاسئاً كلَّما حاولت إثبات عجز الله أو التماس النَّقص في مُلكه أو خلقه.
فلو رجعنا قبل ذلك بآيتين لوجدنا دعوة عامَّة للبحث في الحيِّ والميِّتِ على الأرض إذ فيهما نفس الخاتم وفيهما إعلام وإخبار بأنَّه خالق السّماوات والأرض ولا يعلم عددها وشكلها إلا خالقها الذي ملك وصفها على حقيقتها والذي أودع فيها نفس الخاتم ونفس البصمة التي هي دليل العزَّة ثمَّ جاء التَّحدِّي ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾

خاتم العزَّة

ومن تمام عزَّة الملِك الحقّ أنَّ خاتمه الذي وضعه في كلِّ رسالة وفي كلِّ حرف لا نظير ولا مثيل له عند أحد بمعنى أنَّه لا يمكن لأحد أن يسرقه كما هو حال مُلوك الدنيا؛ لأنَّه لا يمكن بحال لأحد أن يسرق ذرَّة ويضعها في جيبه أو في خزينة ولا أن يملكها لحظة.. ثمَّ هو لو سرقها ونسبها لنفسه فرضاً وأراد أن يدَّعي أنَّه صاحب هذا الصَّكّ وهذا المرسوم (النَّبات مثلاً) بحجَّة أنَّه يملك الخاتم (الذَّرَّة) فستكون حُجَّته هي دليل إدانته وكذبه؛ لأنَّه ما إن يتم تحليل الرِّسالة إلى مُكوِّناتها الأصليَّة إلا ويجدوا أنَّ كلَّ خليَّة فيها نفس الخاتم الذي يدَّعي صاحبنا اللِّص أنَّه يحتفظ به ويصلكّ به أي مخلوق يشاء.. ودليلٌ آخر على كذبه أنَّ ذلك المرسوم (النَّبات) والذي يدَّعي أنَّه صاحبه ومالكه لأنَّه سرق ذرَّة فرضاً وختمه بها هذا المرسوم قد جاء من أسلاف سابقة وقبل مولد

هذا الكذَّاب المدَّعي لذا فالمخلوق (النَّبات) قد توارث ختمه قُبُلاً قبل وجود مالكه المدَّعي أصلاً ولله العزَّة جميعاً. أمَّا مُلوك الدُّنيا فيسهل سرقة خاتمهم وتزويره ومن ثمَّ نسبة رسائل إليهم لم يكتبوها لأنَّها كُتبت وصُكَّت بخاتم مسروق أو مزوَّر.

أمَّا الله فلأنَّه ملِك الملوك ليس كمثله شيء سُبحانه فإنَّ خاتمه أيضاً ليس كمثله خاتم وعليه فلا يقدر على سرقته أحد لأنَّ ختمه هو عين تركيب موجود في كلِّ جُزء من جسم من يدَّعي سرقته وسُبحان الله.

الكتابة العجيبة!

المحو والإثبات

والمتأمِّل في كُتب النَّاس يجدهم يحذفون هذا ويضيفون ذاك حتى تكون كتاباتهم في أبهى صورة فالله يمحو أيضاً ما يشاء من خلقه في سماواته وأرضه ويُثبت ما يشاء قال الله ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الرعد: ٣٩. والأمر ليس فيه تشبيه لأنَّ النَّاس يفعلون ذلك لأنَّ هُناك ما هو أحسن دائماً.. أمَّا الله حينما يمحو ويُثبت فلا مُكْرِهَ له على فعل شيء ولا يضطَّره شيء ولا أحد إلى فعل شيء ولا يوجد من يفرض عليه أو يملي عليه فعل شيء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.. فهو الحكيم الخبير يفعل ما يشاء لأنَّ هذا مُلكه يتصرَّف فيه كيفما شاء فكلّ ما نراه كان بعد أن لم يكن فالله مُختار لكلِّ ما يفعل. ولا يفعل إلا عن علم وخبرة وحكمة فإذا فعل الإله فلا كلام وإذا اختار الإله فلا كلام وإذا حكم الإله فلا كلام.. اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ القصص: ٦٨ وقوله ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٣ وقوله ﴿... مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ القصص: ٦٨ وقوله ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ الرعد: ٤١ لذا لو أنَّه أهلك العالم كلّه دفعةً واحدةً ما وجد من يلومه ولا وجد من يُلزمه بإعادته وهذا من تمام العزَّة والغلبة والمنعة يقول النَّبيُّ ﷺ كما ثبت من حديث أبي بن كعب: لو أنَّ الله عزَّ و جلَّ عذَّب أهل السَّماوات وأهل الأرض عذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم... [(١)]

قال الله:﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ المائدة: ١٧ وقال ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ الحاقة: ٤٤ . ٤٧ وقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الملك: ٢٨... وقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ الملك: ٣٠ فما يمحوه وما يثبته هو أعلم به وإن بدا لنا ظاهراً أنَّه صفة نقص فهذا لقصر فهم عقولنا وعدم إدراكها ماهيَّات الأشياء.. أفرأيتم لو لم يمح الله الدَّيناصورات؟! أفرأيتم لو لم يُثبت وجود المرأة مع الرَّجُل في الأرض؟! أفرأيتم لو محا حركة الأرض حول نفسها وحول الشَّمس؟! أفرأيتم لو لم يمح الحيوانات الميِّتة أولاً بأول؟!

[(١)] **صحيح**: رواه أحمد في المسند واللفظ له ٢١٦٩٦، وابن حبان في صحيحه ٧٢٧ وابن ماجة ٧٤ وأبو داود ٤٦٩٩ وصحَّحه الألباني رحمه الله

ثمَّة نقطة هامَّة لا ينبغي إغفالها عند حديثنا عن المحو والإثبات.. لأنَّ الله حينما يفعل أيًّا منهما فهو يُخْرِج من علمه المكتوب قُبُلاً في اللوح المحفوظ فهو يُؤخِّر محو شيء حتَّى يأتي أجله ويُثبت كلَّ ما قدَّر ثبوته في اللوح المحفوظ.. فالله لا يفعل شيئاً عبثاً ولم يخلق شيئاً عبثاً وحتَّى فهمنا لطريقة عمل الله في الكون وفهم صفاته وأفعاله وكمالات ذاته هي من باب فعله في محو الغفلة وإثبات سلامة الفهم عنه وعن رسوله ﷺ واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الرعد: ٣٩ فتأمَّلوها وما بعدها حتَّى نهاية السَّورة تجدوا عجباً لمن وفَّقه الله إليه. أيضاً ما يمحو الله من خلقه سواء في السَّماوات كموت نجم وفناء مجرَّة أو في الأرض كسحق الدَّيناصورات وانقراض العديد من الكائنات.. أأثَّر هذا المحو على استمراريَّة الحياة على الأرض؟! أم أثَّر في استمرار دوران النُّجوم حول مجرَّاتها.. هل وقعت السَّماء لموت نجم؟ هل اندثرت الحياة على الأرض لانقراض حيٍّ ما.. فلقد محا الله قوم نوح عليه السلام بعد أن لبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله.. فمحو أمَّة نوح عليه السلام وغيرها من أمم الأنبياء والمرسلين لم يمنع من دوام حياة البشر.. فدوامها إذن بمحو عدَّة نباتات أو نوع حيواني أولى وأولى ثمَّ إنَّ الله عندما يمحو فيكون ذلك لحكمة لا يُشترط أن يُعلِّمنا إيَّاها. وعندما يُثبت شيئاً فلحكمة مثلها. والله يحكم لا معقِّب لحكمه سُبحانه. إذن فالمحو والإثبات هو من مظاهر قدرة الملِك على التَّصرُّف في مُلكه كيفما شاء فحيثما وجَّهت وجهك وعقلك وقلبك تجد الملِك وتجد خاتمه الدَّالَّ عليه وعلى أحقِّيَّته للملك وأسبقيَّته لذلك.

كلَّ يومٍ هو في شأن

ما من ملِك من ملوك الدُّنيا إلا وهو مُنشغلٌ على الدَّوام بملكه اللهم خلا ساعات النَّوم والرَّاحة التي يريح بها نفسه من عناء العمل على شئون الحكم والملك من مقابلات مع الرُّؤساء والملوك وافتتاح المشاريع الجديدة أو إصدار القوانين التي يظنُّها تخدم شعبه أو قد تكون في خدمته هو المهمُّ أنَّه يملك تارة ويرتاح تارة لكن السِّمة الغالبة على الملِك أنَّه في كلِّ لحظة في شأنٍ جديد من ترقيات لأُناسٍ وعزل لآخرين.. من سنِّ قوانين ومحو أخرى.. لكن الله عزَّ وجلَّ يختلف كلَّ الاختلاف عن مُلوك الدُّنيا فهو مثلاً لا يغفل ولا ينعس ولا ينام سُبحانه ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ البقرة: ٢٥٥ فهو حيٌّ ومُلوك الدُّنيا يموتون وهو قيُّوم على الدَّوام ومُلوك الدُّنيا قائمون تارة وغافلون أخرى ولا ينعس ولا ينام وهذا من كمال صفات الملِك الحقّ لكن العجيب أنَّ الله أتبع هذا الكلام بقوله ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ليدلنا على أنَّه إذا كان هو المعبود بحق وهو الملِك الحقّ مالك الملك والملكوت الحيّ الذي لا يموت القيُّوم الذي لا ينعس ولا ينام فهو أيضاً مالك السَّماوات والأرض وما فيهنَّ لم يُعيِّن أحداً ويُوكِّله بحفظهما وذلك لأنَّه هو مالكهما بما فيهما وهو الذي تكفَّل بحفظهم فكيف يغفل عن أي جُزءٍ في السَّماوات أو في الأرض وهو أيضاً يعلم بكلِّ ما يدور ويجري في مُلكه علويه وسفليه بعكس مُلوك الدُّنيا لا يعلمون شيئاً إلا من الكُتب أو نشرات الأخبار والجرائد والمجلات والصُّحف اليوميَّة أو ممَّا يُبعث إليه من رسائل وما يُقدَّم إليه من تقارير فعلمهم قاصر وعلم الله قديم لا حدَّ له والله لا يُتعبه حفظ هذا الملك العريض بعكس مُلوك الدُّنيا الذي يُرهق الواحد منهم حفظ دولة أو دويلة صغيرة. الشَّاهد أنَّ الله الملِك الحقّ له في كلِّ لحظةٍ محوٌ جديدٌ وإثباتٌ جديد.. في كلِّ شيءٍ.. بعلم وحكمة بالغتين وكأنَّه يقول لنا: أنا في كلِّ لحظةٍ أرسل بالرَّسائل إلى خلقي وأصُكُّ المراسيم

الملكيَّة ومن يتأمَّل في الأختام يجدها تتبدَّل في كلِّ لحظة من شكل إلى شكل ومن صورة إلى أخرى لأنوع لكم في قدرتي على الخلق وقدرتي على الملك هي رسالة: أنا الملِك لا ملِك سواي.. أنا الملِك الحقّ أفعل في مُلكي ما أشاء فأين مُلوك الدُّنيا؟

تجلِّيات المحو والإثبات

لنا بتأمُّلاتنا في موسم الرَّبيع والصَّيف من زيادةٍ ملحوظةٍ في نموِّ الأشجار والأزهار واخضرار المراعي وكثرة الحشائش والأعشاب حتَّى تُصبح الأرض مُروجاً خضراء ثمَّ يمحوها الله ليأتي فَصْلَا الخريف والشِّتاء فتتساقط الأزهار والأوراق الشَّجريَّة وتُبدَّل الأرض غير الأرض لَحكمة عظيمة! إذ أنَّ نباتات الرَّبيع المتشابكة وحشيشها وأشجاره لو تُركت هكذا على الدَّوام دون محو لامتلأ الغلاف الجوِّيّ بغاز الأكسجين ولزادت نسبته عن ٢١ % ممَّا يتعذَّر معه تنفُّس الأحياء ومن بينها النَّبات نفسه الذي أنتجه.. ولما انطفأ أيّ حريق على ظهر الأرض ولاختلَّت نُظُم الحياة البيولوجيَّة والمائيَّة في البرِّ والبحر والجوِّ. فكان المحو مطلباً طبيعيَّاً يقتضيه الحال على سطح الأرض حتَّى يتمّ بعد هذا المحو استهلاك الأكسجين الزَّائد عن نسبته المعتدلة وحتَّى يتسنَّى للأرض أن تستفيد من بقايا النَّباتات المتحلِّلة عن نباتات الرَّبيع وحتَّى تجد الكائنات الدَّقيقة ما تأكله طوال موسمي الخريف والشِّتاء فمحو هذا هو عين حياة ذاك والعكس. أيضاً تكون السَّماوات (النُّجوم وأبراجها وما شابه) المواجهة للأرض في الرَّبيع غير التي تواجهها في الخريف والشِّتاء.. لذا فكلِّ مجموعة نجميَّة دور رئيسيّ في محو أو إثبات نباتات بعينها في أزمنة منتظمة بعينها (وهذا معنى تُبدَّل الأرض في الرَّبيع والصَّيف غير الأرض وبمثله في الخريف والشِّتاء) فسُبحان من جعل للنُّجوم ومنازل القمر دوراً لم يُعرف إلا مؤخراً في تشجيع الإزهار وإتمامه أو محوه تماماً. قال الله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ١٣

والإزهار هو أهمّ عمليَّة للنَّبات؛ لأنَّه فيه تتكوَّن البذور والثِّمار التي تعطي قيُّوميَّة واستمراريَّة للنَّوع. فدوران الأرض حول نفسها أمام الشَّمس جعلها تُغيِّر من مُواجهة أبراج نجميَّة بعينها فتتحوَّل نباتات الرَّبيع تلقائيًّا بمساعدة أشعة النُّجوم التي تبدو لنا خافتة إلى نباتات مُثمرة فتتوقَّف جينات النُّمو عن زيادة طول النَّبات أو عمره وتتوقَّف معها عمليَّات الأيض الإيجابيَّة لتتحوَّل إلى عمليَّات سلبيَّة تجفِّف الأوراق وتُكلِّس الأشجار وتُسقط الأزهار والثِّمار وينتهي النَّبات حتَّى يأتي الدَّور على تلك البذور في موعدها المحدَّد مع أبراجها الخاصَّة لتنمو من جديد بإذن الملِك بمرسومٍ جديد مختومٍ بخاتم الملِك الإلهي. قال الله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الزمر: ٢١ بذا تكون دقَّة المحو والإثبات هي عين الحكمة فليس المحو لذات المحو ولكنَّه هو عين الحياة والإثبات هو عين الحياة.. لأنَّ حكمة الإنسان تقتضي استمرار الأزهار الملوَّنة المبهجة وروائحها العطريَّة الممتازة في الرَّبيع، فلو أنَّ الأمر بيد الإنسان لأبقاها طوال العام وهو لا يعلم أنَّ في ذلك هلكته وبني جنسه ومن في الأرض جميعاً . ولو عقل الإنسان لعلم أنَّه لو أثبت الدُّنيا ما دخل الجنَّة . أمَّا حكمة الله اقتضت المحو من أجل الإثبات.. فمحو الرَّبيع إثبات لجنس الحياة على الأرض واثبات دوران الأرض حول نفسها هو عينه جنس الحياة على الأرض. ومسألة المحو والإثبات هي في أصلها سُنَّة كونيَّة وليست شيئاً جديداً في مُلك الله فحياة الإنسان مثلاً مُتوقِّفة على تلك المسألة بما يُسمُّونه الهدم والبناء أو الميتابوليزم أو الأيض الغذائيّ. فلو لم تقم بمحو صورة الطَّعام التي تتناوله عليها وتثبته في صورة صالحة للامتصاص من قِبَل الأمعاء وغيرها لما أمكن

الاستفادة من الطَّعام... ولا يعرف قيمة هذا المحو الذي يمدّ الحياة إلا من يُعاني من عُسْر الهضم ومشاكل الأمعاء والقولون فلابدَّ من الهدم من أجل البناء ولابدَّ من المحو من أجل الإثبات. وهُناك ما تمحوه المعدة ويصلح للامتصاص وهُناك ما تمحوه ولا يصلح إلا للخروج كالبراز. ثمَّ تقوم خلايا الدَّم اللِّيمفاويَّة أو جهاز اللِّيمف عموماً بامتصاص جُزيئات الطَّعام بعد تكسيرها إلى أجزاء دقيقة فتوزِّعها في الدَّم على سائر الخلايا والأنسجة والأعضاء وتقف كلّ ذرَّة وكلّ جُزئ على باب الخليَّة تستأذن في الدُّخول فلا يُؤذَن لها من قِبَل الخلايا الحارسة حتَّى تأتيها إشارة من ملكة الخليَّة (النَّواة) برسالةٍ كيميائيَّةٍ خاصَّة أن افتحي للذَّرَّة (س) أو لعدد معيَّن من الذَّرَّات بمواصفات خاصَّة وأحجام وأقطار مُحدَّدة لا تتعدَّاها.. والخلايا لا تجامل أحد العناصر أو الذَّرَّات على حساب عنصر آخر فلا تُدخل الذّهب لبريقه ولا لأنه أغلى عند الإنسان وله قيمة في حياته لكنَّه بالنِّسبة لها كالسُّم الزُّعاف.. إنَّ عنصراً كالنُّحاس أو ذرَّة واحدة من البورون مثلاً لها من الأهميَّة في الخليَّة ما يفوق ملء الأرض ذهباً لدى الإنسان. لذا كان من سُنَّة الله في الخليَّة أنَّه من تسمح لنفسها بتجاوز حدودها وتُدخل فيها من لا يحقّ له الدُّخول ودون إذن النَّواة أنَّ تُعاقَب الخليَّة والنَّواة نفسها بالإعدام بذلك العنصر الدَّخيل لتكون عقوبة للنَّواة التي فشلت في فرض سيطرتها على خلاياها الدُّنيا، وعقوبة للخلايا الخائنة على حدٍ سواء. والشَّاهد أنَّ مجموع عمليَّات تكسير الجزيئات الغذائيَّة من بروتين وخلافه في المعدة والأمعاء ثمَّ إعادة تحويلها وتجميعها في صورة أخرى تناسب حاجات الإنسان الخلويَّة.. تلك العمليَّة في مجموعها هي الحياة ولو زادت عمليَّة الهدم عن البناء تحدث الشَّيخوخة ويموت الكائن طبيعيًّا لفشل أنظمة خلاياه الدَّاخليَّة عن مُواصلة مهامِّها المنوطة بها. كذلك لو زاد البناء عن الهدم تحدث السِّمنة المفرطة التي تؤدِّي إلى الوفاة. ولهذا حكمة تقييد عمر الكائنات الحيَّة فمن لم يقتله المرض قتله غيره من الكائنات ومن لم يمت في حادث انتظر حتَّى حين فتوافيه منيَّته طبيعيًّا وإلا لضاقت الأرض بسكَّانها لو لم يكن الموت سُنَّة طبيعيَّة في الأحياء.. وهذا هو أنموذج حي نعيشه كلُّنا ونلمس آثاره في المحو والإثبات فعندما يزيد الإثبات في خلايا الطِّفل ينمو سريعاً حتَّى يصل لسنٍ مُعيَّنٍ يتساوى معه المحو والإثبات ثمَّ ينعكس النِّظام فيزيد المحو على حساب الإثبات فيموت الإنسان.

فمحونا آية اللَّيل

ومثال آخر هو محو آية اللَّيل وإثبات آية النَّهار.. فليس مقصودها جعل نصف الكرة نهاراً أو نصفها ليلاً فقط وليس مقصودها الإضاءة والإظلام لذاتهما إذ لو كانت نصف الكرة نهاراً ونصفها ليلاً على الدَّوام لمات المواجهين لنصف النَّهار من شدَّة الحرِّ ومعهم سائر الأحياء ومظاهر الحياة. ولمات المواجهين لنصفها المظلم من شدِّة البرودة وهذا مُشاهَد ومُصَوَّر على سائر الكواكب غير الأرض. وقولنا إنَّ الإضاءة والإظلام ليسا مقصودين لذاتهما لأنَّهما أعراض تنشأ من التقاء الضَّوء بالأجسام إذ ليس للضَّوء ولا للظَّلام في ذاتهما معني ولكن لفعلهما المتعدِّي وتأثيرهما في الأحياء من ناحية ولإثبات قدرة الله وآياته في الأرض من ناحية. فلو كان المعنى الأوَّل هو الغاية لناقض القرآن الواقع لأنَّه لو واجه نصف الأرض الضَّوء وواجه نصفها الظلام لمات كلا النَّصفين لما سبق بيانه لكن مقصود القرآن أنَّه جعل آية النَّهار مُبصرة أي مرئيَّة مُشاهدة معلوم سببها وحكمتها وهي تطلع بطلوع الشَّمس على منطقة معيَّنة من الأرض وعلى قومٍ ما ثمَّ يأتي الظَّلام فتُمْحَى الآية التي سبَّبت النَّهار وهي آية الشَّمس أي تُزال ظاهريًّا من مكانها لدوران الأرض حول نفسها أمام الشَّمس فيأتي محو آية اللَّيل [فما هي آية اللَّيل إذن؟] إمَّا إنَّها محو آية



النَّهار فيكون محو إحداهما إثبات الأخرى وإمَّا المعنى أنَّ آية الَّليل هي ظُلمة الكون وهي الأصل في الكون وهذا ما أثبته علم الفلك الحديث أنَّ الكون خارج الأرض مُظلم تماماً والنُّجوم والمجرَّات وسط الظلام تبدو كنقاط لامعة في بحرٍ مُظلمٍ لا يُرى فيه شيء.. قال الله عن الشَّمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ الشَّمس: ٤ أي يُغطِّيها ويُحيط بها من كلِّ جانب. وقال ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ اللَّيل: ١، ٢ أي الَّليل يُغطِّي الكون ويسود والنَّهار يتجلَّى بعد أن لم يكن فهو طارئ ولذا يقول ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ يس: ٣٧ فيكون الأصل هو محو الضَّوء وضوء الشَّمس المنعكس والمشتَّت بطبقات الغلاف الجوِّيّ ما هو إلا ظاهرة أو شيء طارئ على آية الَّليل التي هي الظلام الأصليّ للكون ومدلول الآية أنَّ الَّليل والنَّهار يتعاقبان وباستمرار على نفس المكان ونفس الأشخاص ليتحقَّق لهم المحو والإثبات كما لغيرهم من البلدان المجاورة وهكذا حتَّى تعمّ الأرض كلّها الآيتين كلَّ لحظة. وسيظلُّ المحو والإثبات ما دامت السَّماوات والأرض حتَّى تقام الحُجَّة على كلِّ الأمم فلا يُقال إنَّها كانت ظاهرة حدثت وانتهت بل هي مُستمرَّة والأختام مُستمرَّة في كلٍ لتتجدَّد الدَّلالة على الملِك الحقّ في كلِّ شيء في كلِّ لحظة.

انتبه: سينقلب الَّليل على النَّهار

يُقلِّب الله الَّليل والنَّهار.. ستقول وما الجديد في ذلك؟ لقد قرأنا تلك الآية مراراً وتكراراً ونعرف هذا جيِّداً يذهب الَّليل ليأتي النَّهار والعكس ونقول مهلاً وتعال معي لأعلِّمك كيف تقرأ القرآن من جديد.. اسمع أخي كلام ربِّك ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ النُّور: ٤٤ نعم يُقلِّب الَّليل والنَّهار ومع كلّ قلبة تُطوى صفحة من مخطوط الوجود وتُكتب صفحات جديدة، ففي كلِّ يومٍ تُولد نباتات جديدة وحيوانات جديدة وأناسيّ جديدة وكأنَّ كلَّ يوم هو سجلٌ قائمٌ بذاته تُكتب فيه أشياء وتُمْحى أخرى فانظر في نفسك يا من تطوى كلَّ ساعة صفحة من صفحات عُمرك ماذا أثبتَّ من طاعاتٍ وماذا محوت من معاصٍ وذنوبٍ؟ ماذا أثبتَّ من توبةٍ وأوبةٍ وماذا محوت من مُنكراتٍ وشهواتٍ وشبهاتٍ؟ وتعال معي وتأمَّل فالأمر لم ينته فأنت يا إنسان محتاج للغذاء والغذاء محتاج لوجود نبات وحيوان وكلاهما محتاج إلى الماء والهواء والتَّراب والضَّوء وهؤلاء بدورهم في حاجةٍ إلى أرضٍ للإنبات وإلى من يُفتِّت لهم الجبال فتستحيل تُراباً فيكون الجبل محتاجا إلى الماء والماء محتاجاً إلى حرارة الشَّمس كي يتبخر في الغلاف الجوِّيّ وهو بدوره محتاج لذرَّات وجاذبيَّة تمنع الماء من الهروب والإفلات منه والماء محتاج لوسط يجري عليه ليصل للنَّبات والوسط هو الأرض وهي بدورها كي تضمن بقاءها محتاجة للشَّمس لتحفظ توازنها ومدارها وتعاقب ليلها ونهارها وفصولها لكن الشَّمس بدورها محتاجة إلى المجرَّة والمجرَّة محتاجة إلى مجموعة المجرَّات المحلِّيَّة والتي تحتاج هي الأخرى لعنقود المجرَّات العظيم وهلمَّ جرَّا فضلاً عن ضوء النُّجوم والذي يحتاج كي يتكوَّن لتفاعلاتٍ هائلةٍ في قلب النُّجوم تحت ضغط وحرارة لا يتصوَّرها عقل فلكأنِّي بالإنسان محتاج إلى كلِّ هذه الأشياء في الوقت ذاته وفي كلِّ لحظة ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ١٣ الكون كلّه مُسخَّرٌ له وعلى هذا فهو فقير ولا يملك شيئا لذا فقد كرَّمه الله بأن نسب فقره إليه مُباشرةً لا للأسباب السَّابقة.



﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ فاطر: ١٥ فلأن يكون فقرك إلى الغنيِّ الذي لا يحتاج لشيء أولى وأولى من فقرك إلى محتاج مثلك فهل عرفت الآن كيف تقرأ القرآن وكيف تخرج بالعبرة؟ لقد خرجنا من الآية ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ النُّور: ٤٤ بكثير من المعاني والفوائد والعبر لا داعي لإعادة ذكرها لذا تعجب أخي عندما تقرأ باقي الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ النُّور: ٤٤ ليس هذا فحسب بل الأعجب من ذلك الآيتان السَّابقتان لها.. اسمع ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ النُّور: ٤٢، ٤٣ فقبل أن يُثير همَّتك للتَّفكُّر في تقلُّب اللَّيل والنَّهار وما فيهما من محوٍ وإثبات أثبت ما حوله نُدندن من كونه لا يفعل هذا المحو ولا ذاك الإثبات إلا لكونه مالِك الملك ويفعل في مُلكه ما يشاء فقال بأنَّ له مُلك السَّماوات والأرض وتلاها بمظهرٍ من مظاهر ذلك وهو تأليف ذرَّات السَّحاب وتحويلها من حال لحال حتَّى ينزل الله الغيث والبرَد والذي قرَّر أنَّه لكونه مالِك الملك يُصيبُ به من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء وهي آية تتجلَّى فيها مظاهر الملك ومظاهر المحو والإثبات ومظاهر طلاقة القدرة ومظاهر الرَّحمة ومظاهر التَّهديد والتَّخويف بالقوَّة ونفاذ الأمر.. يُصيب ويصرف.. يُثبت ويمحو ثمَّ أخبر بأنَّه يُقلِّب اللَّيل والنَّهار أي يجعل اللَّيل والنَّهار خِلفة ليعلم النَّاس أنَّ الكلَّ مختومٌ بخاتم الملِك وأنَّه يُصيبه من خاتمه الذي هو علامة تفرُّده بالملك في كلِّ لحظةٍ مرسوماً جديداً وفي كلِّ سكنة تصله رسالةٌ جديدة مختومة بخاتم الملِك الحقّ مضمونها إمَّا المحو وإمَّا الإثبات.

العبرة

هُناك رابطٌ عجيبٌ يربط آيات القرآن بعضها ببعض وتتجلَّى تلك الحقيقة في مسألة المحو والإثبات وعلاقتها بتقلُّب اللَّيل والنَّهار فإذا أضيف إليهم كون الله له مُلك السَّماوات والأرض سهل استخلاص العبرة والذِّكرى.. فالمقرَّر الآن أنَّ الله له الملك كلُّه وأنَّه يتصرَّف فيه كيفما شاء ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ النُّور: ٤٢ فإذا وضعنا قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ الفرقان: ٦٢ إلى جوار قوله تعالى﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ النُّور: ٤٤ لخرجنا بتلك العبرة وهي أنَّ الله يقول لك يا إنسان: أنا الملِك لا ملِك سواي وأنا أتصرَّف في مُلكي الذي أنت جُزءٌ منه كيفما أشاء فإذا كنت قد صرَّفت بصرك وعقلك لترى كيف هو فعلي وتصريفي في السَّماوات وفي الأرض من حولك من خلال دوران الأفلاك وحركة الشَّمس والأرض والقمر ومن خلال تقليب اللَّيل والنَّهار ومن خلال التَّحكم في إنزال المطر ومن خلال تكوين البرق وكلُّ هذا لا يقدر عليه سواي فماذا أنت في هذه الأشياء العظيمة وأنت أقل منها حجماً وقوة لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً كما أنَّ السَّماوات والأرض تحت تصرُّفي وطوع أمري فأنت أيضاً تحت تصرُّفي وطوع أمري لا تحيدُ عن مُلكي طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك فأين تذهب وليس لك غيري ولن ينجيك سواي ولن يحميك سواي لا يملِك جنَّتك سواي ولا يمنع عنك ناري سواي فأين تذهب ولمن تهرب، أفق من غفلتك واعلم أنَّك تحت الأمر النافذ فإمَّا أن تستقيم وتعلم أنَّه إليَّ المصير وإمَّا أن نمحوك بمرسومٍ مختومٍ في لحظة تلك هي العبرة وتلك هي الذكرى إن علمتها وجب عليك شكرها لأنَّه ليس كلُّ عبادي يعرفونها ألم تسمع قولي ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ النُّور: ٤٢ وقولي ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ الفرقان: ٦٢ يا إنسان عرفت مصيرك فاعتبر واذكُر واشكُر.

مَنْ يملك البذرة؟

إنّ مالك البذرة يتحكَّم فيها.. متى يزرعها وكيف يحصدها.. لكن لو سألته من أين لك بتلك البذرة؟ سيقول من النَّبات السَّابق. ومن أين جاء النَّبات السَّابق؟ سيقول من بذرة الأسبق وهكذا إلى أن نصل لزمن لم يكن فيه هذا المالك المؤقت (الفلاح) قد وُلِد فنتركه ونتابع التَّسلسل مع والده الذي كان مالكاً للبذور قبل مولد ابنه وهو بدوره لم يصنعها بل هي من حصاد النَّبات السَّابق وهكذا إلى أن نصل في عمق التَّاريخ والزّمن إلى آدم عليه السلام أبي البشر. لكن الثَّابت من الشَّرع ومن التَّاريخ الطَّبيعي أنَّ الإنسان هو آخر من هبط على الأرض.. والنَّبات قد ظهر عليها قبل الإنسان بملايين السِّنين فَمَنْ خلق البذرة الأمّ إذن؟ لو قال قائلٌ خلقت نفسها لقلنا من أيِّ شيء؟ سيقول من تراب الأرض. ونقول لو افترضنا حدوث ذلك لكانت الأرض هي الإله لأنَّها هي الأصل والأقدم لكنَّها جاءت كما يقول عُلماء العصر من الشَّمس وعليه فالشَّمس هي الإله للأرض وللبذرة لكن سرعان ما يتبيَّن بُطلان هذه الافتراضات لأنَّ الشَّمس بدورها انفصلت عن المجرَّة أو تكوَّنت من إحدى سُدُمها بعد انفجار البيضة الكونيَّة كما يزعمون. فمن أين جاءت السُّدُم ومكوِّنات البيضة إذن؟ فحيث لم تكن مادة أصلاً فمن أين جاءت؟ ثمَّ كيف تخلق البذرة من الأرض وتكون الأرض إلهاً وهي يستقطع منها أجزاء تخلق منها البذور وغيرها..؟ هذا عبث ولغو لا يُسْمِن ولا يغني من جوع؟! عند هذه النُّقطة يقف العلم البشري عاجزاً عن التَّفسير ليفسح المجال لقول الحقّ الذي فيه يمترون والذي أعلمنا أنَّه خالق كلِّ شيء وأنَّه خلق السَّماوات والأرض وما فيهنَّ ومن فيهنَّ من نباتٍ وحيوانٍ وإنسانٍ وبذلك التَّدرُّج المنطقيُّ يبطل القول بألوهيَّة المادَّة لنفسها ويثبت لها إلهٌ ليس بمادَّة.. إلهٌ ليس كمثله شيء، قال الله ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٩ وعليه فالله هو مالك البذرة لأنَّه هو الذي خلقها فسوَّاها وقدَّر فيها صفات النَّبات الذي سينبت منها فهدى.. فها هي الأرض تعجُّ بالبذور على تنوّعها فمن يشكُّ في هذا الكلام فليبحث عن الخاتم.

مَنْ يملك الأرض؟

سُبحان الله! الأرض لم يدَّعي ملكها أحدٌ من البشر كما أنَّه لم يدَّعي أحدٌ أنَّه خلق الأرض أو الشَّمس أو القمر. وحتَّى فرعون الذي ادَّعى الألوهيَّة كانت حُجَّته لإثبات ألوهيَّته وربوبيَّته هي بعينها دليل جهله وفقره.. كيف ذلك؟ قال أغبى من وطأ بقدميه الثَّرى ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الزخرف: ٥١ فاستدلَّ على أحقيَّته للألوهيَّة بكونه ملِكاً على قطعة أرض هي جُزء [مصر] من كل [الأرض] فهو رغم كذبه لم يكن ذكيًّا في تزييف الحقائق ففضح نفسه وظهر جهله وانجلى لأولي الألباب. فمن يملك الأرض يملك ما فيها هكذا زعم لكن الحقيقة أهو ملك الأرض حقًّا وهل مَلَكَ مصر حقًّا أم أنَّه مُلِّكَ عليها؟.. ولو سُلَّمنا جدلاً بأنَّه مُلِّكَ مصر وأنَّها تخصُّه اشتراها بطريقةٍ ما فهل يعني هذا أنَّه إله يستحقُّ العبادة؟ قاده جهله الممزوج بالكبر والجحود فأنساه أنَّه قد وُلِدَ من أبٍ وأمٍّ أفيعقل أن يأتي الملك أولاً بكلِّ ما فيه من مخلوقات ثمَّ يولد إله ذلك الملك وخالقه بعد؟ إنَّ هذا محال وممتنع أشدَّ الامتناع. ولو قبلنا ألوهيَّة أحد لاستبعدنا فرعون في المقام الأوَّل ولاتَّجه الأمر إلى والديه لأنَّهما على الأقلّ أسبق منه في الوجود فلمَّا عُلِم أنَّ سائر البشر جاءوا للأرض وهي أرض بكلِّ ما فيها من خلائق ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ الذَّاريات: ٤٨ فسد القول بألوهيَّة أيّ بشرٍ كان وبمثله يُردُّ على من

عبد المسيح وجعله إلهاً وربًّا بعد ولادته من بطن إنسيَّة كباقي البشر. وشتّان بين قول الله ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ البقرة: ٢٩ وبين قول فرعون ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ غافر: ٣٦، ٣٧.

وفرعون حين تبجَّح مع موسى وطلب من هامان أن يبني له صرحاً لعلَّه يطَّلع إلى إله موسى كشف بطلان ألوهيَّته بهذا الأمر لأنَّه عكس مدى جهله بما في السَّماء لأنَّه لو كان إلاهاً لكان من مقتضيات ألوهيَّته ألا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وكشف عن مدى عجزه أن يصعد في السَّماء بقدرته الخارقة التي يجب توفرها في ألوهيَّته المزعومة. أمَّا أن يحتاج لأسباب تصعد به إلى العُلا فهو محض عجز وغباء وقوله ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ غافر: ٣٧ يفضح مدى جهله وعدم حكمته لأنَّه كان يعلم تمام العلم بوجود إله في السَّماء فأثبت لنفسه الجهل ونفي عن نفسه العلم والحكمة ولو عقدنا مقارنة سريعة بين كلام الله الملِك الحقّ وبين كلام مُدَّعي الملك والألوهيَّة سنعي هذا جيداً

قال الله

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران: ٢

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران: ١٨

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ طه: ٨

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه: ١٤

قال فرعون

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ القصص: ٣٨ انظر يقول: ما علمت

قال الله

﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ٧٣

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ الرعد: ٩

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فاطر: ٣٨ وغيرها كثير

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ آل عمران: ٥

﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ طه: ٧

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ النمل: ٧٤

﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ إبراهيم: ٣٨

قال فرعون

﴿ مَا عَلِمْتُ ﴾ القصص: ٣٨

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص: ٣٨

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ غافر: ٣٧



فتأمَّل كيف أثبت الله العلم لنفسه وأثبت الألوهيَّة لنفسه في حين شكَّك فرعون من حوله في إلوهيَّته بقوله: ما علمتُ لكم وبقوله: وإنيِّ لأظنُّه كاذباً فأين العلم يا فرعون وما هي مقوِّمات ألوهيَّتك؟ إذن إذا كنت جاهلاً وضعيفاً لا تقوى على الصُّعود إلا بمساعدة هامان وصرحاً يُبنى لك لعلَّك تبلغ الأسباب وتدَّعي أنَّك إله لمِلْكِك مصر وأنهارها التي وُلِدتَّ أنت فوجدتَّها بمن يحيا فيها فمن كان يُدبِّر الكون من قبلك! بل من الذي أوجد مصر والأنهار التي تجري من تحتك! وشتَّان أن تجري من تحتك وأن تجري بأمرك. وبعد كلِّ هذا ما الذي أعجزك أن تقتل موسى وهو بين يديك؟ بل لماذا كنت تبول على نفسك إذا رأيته ولماذا احتجت لمشورة الملأ من حولك؟ ثمَّ لماذا قلت وأنت على وشك الغرق: آمنت.. أتكون إلاهاً وتؤمن بغيرك تحت أي ضغط؟!

إذن من يملك الأرض حقاً؟ إنَّ الوحيد الذي ادَّعى مُلك جُزء منها بان جهله وكذبه وافتضح أمره بل ومات غرقاً ليكون أكبر دليل على نفي ألوهيَّته.. فالذي يملك الأرض حقاً يملِك ما فيها ولا مالك لها إلا الله وإلا فالأرض موجودة والذي يدَّعي أنَّه خلقها فليأتِ وليعلن ذلك وليأتِ ببرهان على صدق دعواه وليعدَّ لأسئلتنا جواباً كيف خلق الأرض ومتى ومن أي شيء خلقها وكيف وضعها في مدارها حول الشَّمس ولماذا يسكن عليها ويحتاج لهوائها وطعامها وشرابها وبل لماذا يموت فيها ويصير تراباً يختلط بترابها ولا يمنع عن نفسه الموت ولا المرض؟. إذا تقرَّر أنّه لم يدَّعِ مُلك الأرض أحد ولم يدَّعِ خلق الأرض أحد كان الله هو الملك الحق للأرض ومن عليها والدَّليل أنَّه ختمها بخاتمه وختم كلَّ ما ومن فيها بنفس الخاتم.

الآيات المختومة

المتأمِّل في لغات أهل الأرض يجدها تتكوَّن من كلماتٍ مُكوَّنةٍ من حروف هي أساس الُّلغة.. فإذا علونا بأفكارنا لنتأمَّل في لغةِ القرآن لوجدناها أيضاً مُؤلَّفة من كلمات عربيَّة من حروف عربيَّة ولكن القرآن لم ينزل عربيًّا لمحاكاة لغة الغرب لأن مُنزله والمتكلِّم به الذي سهل لإسماعيل عليه السَّلام أن يفتق لسانه بالعربيَّة بعد أن لم تكن لقول النبي ﷺ: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل و هو ابن أربع عشرة سنة [1]. ولكنَّ الله أنزل القرآن عربيًّا على نبيٍّ عربيٍّ بلسانٍ عربيٍّ مُبين إمعاناً منه في التَّحدِّي أن يأتوا بمثله. إذ لو جاءهم بلسانٍ أعجميٍّ لقالت العرب: لو جاءنا بالعربيَّة لحاكيناه ولجئنا بما هو أفضل منه، فكان التَّحدِّي أنَّه أُنزل عربيًّا وتحدَّاهم بسورةٍ فلم يأتوا بمثلها وكان من تمام التَّحدِّي أن يفسح لهم المجال ليزيدوا من حروف الُّلغة حرفاً لم يكن فيها أو ينقصوا منها حرفاً فجاءت أوائل بعض السُّور بحروفٍ مُقطَّعة ليعرِّفهم أنَّ هذا القرآن الذي أعجزكم ما هو مُركبٌ من سوى هذه الحروف ونظائرها التي لم نذكرها فهي تغني عن الكلِّ فلو ذكر (س) فهي لا تحتاج لإردافها ب (ش) وهكذا، فلكأنَّ القرآن نزل رسالة لغويَّة للعرب تحدِّياً: يا عرب ويا أهل الُّلغة هذا كلامٌ بلسانكم ليس من كلامكم رغم كونه مُؤلَّفاً من نفس حروف لسانكم العربيِّ فإن لم تأتوا بمثل هذا القرآن فعليكم الإقرار بأنَّه ليس من كلام البشر لأنَّكم أنتم أفضل البشر على الأرض في هذا الِّلسان وخباياه وأسراره وحروفه فعجزكم عن محاكاته عجز لغيركم من باب أولى. هذا عن لغة الله الخاصَّة؛ لأنَّ الله يتكلَّم وقتما شاء كيفما شاء وبأيِّ لسانٍ شاء فهو الذي تكلَّم بالتَّوراة والإنجيل بالعبرانيَّة وأنزلهما منه على موسى وعيسى على التَّرتيب وهو الذي يسمع دعاء السَّائلين في الأرض بشتَّى الُّلغات ومن حجَّ البيت الحرام أو اعتمر ليعلم هذا تمام العلم فيرى بعينيه ويسمع بأذنيه مدى اختلاف الألسنة والَّلهجات فهذا يدعو بالعربيَّة وهذا يدعو بالإنجليزيَّة وهذا بالفرنسيَّة وهذا بالألمانيَّة

---

[1] **صحيح**: صحيح الجامع برقم ٢٥٨١ عن علي رضي الله عنه.



وهذا بـ... و.. أمَّا الله عزَّ وجلَّ فلا تختلف عليه الأصوات والُّلغات والَّلهجات فالكلُّ يدعوا ويبتهل بلسانه والله يسمع الجميع في وقتٍ واحدٍ ويُؤتي كلَّ ذي سُؤلٍ سُؤله أو يدَّخره له في يوم الميعاد. ويوم القيامة سيحاسب كلُّ امرئٍ ويُسأل بلغته الخاصَّة ثمَّ أهل الجنَّة في النِّهاية سيكون لسانهم عربيًّا مبيناً. ولقد أرسل الله كلَّ رسولٍ بلسان قومه كما أخبر بذلك سُبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم: ٤ بل لقد جعل الله اختلاف الأصوات من الآيات الباهرات الدَّالة على ألوهيَّته وطلاقة قدرته حتَّى يتساءل النَّاس ويتفكَّروا من الذي خلق تلك الأصوات والُّلغات وجعل هذا يتعلَّم لغة ذاك وهذا يتعلَّم لسان ذاك كي يفهم بعضهم البعض ويتزوج بعضهم من بعض وتستمر الحياة قال الله ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢

الشَّاهد: أنَّ كلَّ الُّلغات مبدؤها من خالقها وهو قد شهد بتعدُّد الُّلغات التي دُعي إليه بها والتي أرسل بها أنبيائه ورسله كما سبق. وذلك لأنَّ كلَّ نبيٍّ نزل في قومٍ كان لابدَّ أن يخاطب النَّاس بما يفهمونه. ويُستفاد من هذا أنَّ القرآن ليس فقط هو كلام الله بل كلَّ كتبه من كلامه سُبحانه فكلام الله لا ينتهي لا كيفاً ولا كمًّا ولا حدود لعلمه ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لقمان: ٢٧ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ الكهف: ١٠٩

ما سبق كان فيما يخص كلام الله الخاص لأنبياء مخصوصة في أزمنةٍ مخصوصة لأقوامٍ مخصوصة، لكن لما كان الله عليماً حكيماً عزيزاً كان من تمام عزَّته أن تكون هُناك لغة سهلة يسهل قراءة حروفها ومعرفة كلماتها لكلِّ أحد.. فلقد جعل الله في كونه نوعين من الُّلغات أولاهما الخاصَّة وقد تقدَّم الحديث عنها وثانيهما العامَّة وهي كتابه المنظور أي الكون بما فيه من سماوات ومجرَّات وشموس وكواكب والأرض بما فيها من أنهار وجبال وأودية وزروع وطير وحيوان وإنسان وهذه لغة لم تنزل لأحدٍ خاصَّة بل جاءت عامَّة وهي كتاب مفتوح مُنذ خلقه أو كتبه جلَّ في عُلاه وينادي الجميع: أنا كتاب الله اقرؤوني فحروفي مُعجزة لمن بحث عنها فيا تُرى ما هي الحروف التي يتكوَّن ويتألَّف منها هذا الكتاب الكبير؟ قبل أن نتكلَّم عن ذلك لابدَّ من بيان حقيقة ذلك الكتاب والذي أمر الله في القرآن بقراءته بقوله ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. ﴾ يونس: ١٠١ وقال ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يوسف: ١٠٥ وقال ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ ق: ٦ – ٨ وقال ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الذَّاريات ٢٠، ٢١ وقال ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الغاشية: ١٧– ٢٠ وقال النَّبيُّ ﷺ كما ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: تفكَّروا في آلاء الله و لا تفكَّروا في الله[١] وفي رواية ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال ﷺ: تفكَّروا في خلق الله و لا تفكَّروا في الله[٢]. وانظر إلى الأعرابيِّ البدويِّ الذي عمل بمقتضى تلك الأوامر والتَّوجيهات الإلهيَّة والنبويَّة فوصل به تفكيره أن استطاع هجاء حروف الكون المنظور

---

[١] **حسن**: رواه الطبراني في الأوسط ٦٣١٩ وغيره وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع ٢٩٧٥ وفي الصحيحة ١٧٨٨.

[٢] **حسن**: رواه أبو نعيم في الحلية وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع ٢٩٧٦.



فنجح في النِّهاية في قراءة كلماته فوصل إلى المطلوب.. لما سُئِل: ما الدَّليل على وجود الرَّبّ؟ فقال: سُبحان الله، إنَّ البعرة تدلُّ على البعير، والأثر يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبِحارٌ ذات أمواج، ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، ألا يدلُّ ذلك على اللَّطيف الخبير؟!

قال أبو العتاهية:

ألاَ إنَّنَا كُلُّنَا بائـــــــدُ = وأيّ بَني آدَمٍ خالِـــــــدُ؟
وبدءُهُمُ كانَ مِنْ ربِّهِـــــمْ = وَكُلٌّ إلى رَبّهِ عائِـــــــدُ
فيَا عَجَبَا كيفَ يَعصِي الإلـــهَ = أمْ كيفَ يجحدهُ الجاحِـدُ
وللهِ فِي كلّ تحرِيكَــــــــة = وفي كلّ تَسكينَةٍ شاهِـــدُ
وفِي كلّ شيءٍ لَهُ آيـــــةٌ = تَدُلّ على أنّهُ الواحِــــدُ

نعم في كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه الواحد. فإن رُحت تبحث في أيِّ شيءٍ تكتشف أنَّ فيه آية مختلفة عن آية الآخر فإذا أخذت النَّبات مثلاً تجد آيته هي الخليَّة النَّباتيَّة فهي أساس تكوينه وعليها مدار عمل سائر أنشطة النَّبات كلّه فإذا تعمَّقت في البحث عن آية الخليَّة تجدها هي النَّواة فإذا تعمَّقت في البحث عن آية النَّواة تجدها المادَّة الوراثيَّة فإذا تعمَّقت في البحث عن آية المادَّة الوراثيَّة وجدتَّ أنَّها الجينات المسئولة عن الشَّفرة الوراثيَّة فإذا تعمَّقت في البحث عن آيتها وجدتَّ أنَّها حروف الشَّفرة الأربعة الأدنين، و الثَّايمين، والجوانين والسَّيتوزين أو المعروفة ب A,T,G,C تلك هي حروف الكائنات الحيَّة التي تتكوَّن منها شتَّى صنوف الأحياء فإذا أمسكت بكلِّ واحدةٍ منها على حدة بحثاً عن آيتها وجدتَّ أنَّ آيتها هي الذَّرَّة فإذا تعمَّقت في البحث أكثر وأكثر وجدتَّ أنَّ آية ذلك كلِّه ذرَّة الهيدروجين البسيطة التي تتركَّب من إلكترون واحد يدور وهو يُسبِّح الله حول بروتون واحد وهذا هو الخاتم الذي تألَّفت منه ومن مضاعفاته ومكرَّراته كلَّ المخلوقات الحيَّة وغير الحيَّة في السَّماوات والأرض .

فمنه تكوَّنت النُّجوم والمجرَّات ومنه تتكوَّن المخلوقات الحيَّة على الأرض فما ذرَّة الكربون سوى ٦ ذرَّات هيدروجين وهو العمود الفقري للأحياء. وما الأكسجين الذي تتنفَّسه سوى ٨ ذرَّات هيدروجين. وما الماء الذي تشربه وجعل الله منه كلَّ شيءٍ حي سوى ذرَّتين من الهيدروجين وذرَّة من الأكسجين هي في نفسها مضاعفات لذرَّة الهيدروجين . وهو الخاتم الدَّال على أنَّ الله هو الأوَّل والآخر والظَّاهر والباطن فإذا بحثت عنه في ظاهر أيّ مخلوق وجدتَّه وإذا بحثت عنه في باطن أي مخلوق وجدتَّه فأينما تُولُّوا فثمَّ ختم الله الدَّال على أنَّ له الملك كلُّه وله الحمد كلُّه وهو على كلِّ شيءٍ قدير والدَّليل هو الخاتم. إذن فكلّ مخلوق تراه بعينك هو آية من آيات الله المختومة بخاتم الملِك الحقّ وما عليك سوى تعلُّم كيف تقرؤها.

فإذا أخذنا شيئاً آخر مثل الإنسان ورُحنا نبحث فيه وفي آياته التي قال الله عنها ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الذَّاريات ٢٠، ٢١ فهيا بنا نبصر من تلك الآيات ما تقرُّ به أعيننا ونعرف به ربَّنا ومالكنا ونحن لن نتحدَّث عن آيات الله ومعجزات خلق الإنسان فهذا أمر يطول وإنَّما نحن نبحث عن آياتٍ من نوعٍ خاصٍّ لأنَّ كلَّ جهاز في جسم الإنسان به من المعجزات والآيات الباهرات في خلقه ما لا يقدر على وصفه واصف وإنَّما نحن نبحث في الرَّابط العام الذي يربط كلَّ هذه الآيات فكما فعلنا مع النَّبات نقوم بنفس الدَّور مع الإنسان فإن آيته أيضاً الخليَّة الحيوانيَّة والتي تختلف عن الخليَّة النَّباتيَّة في بعض الأشياء، المهم أنَّها آية للإنسان وللحيوان عموماً فإذا تعمَّقنا في تحليلها وجدنا أنَّ آيتها أيضاً هي النَّواة

والتي آيتها المادَّة الوراثيَّة DNA فإذا تعمَّقنا وصلنا إلى نفس النَّتيجة السَّابقة وهي أنَّ آية ذلك كلّه ذرَّة الهيدروجين البسيطة ملكة الذَّرَّات ختم مكون من حرفين (بروتون وإلكترون) لكنَّه ختم دوَّار ختم هو بداخله آية وطريقة عمله آية وطريقة دوران الإلكترون حول البروتون آية واهتزاز البروتون في مكانه آية والفضاء الواسع الذي يدور فيه الإلكترون حول البروتون آية إذا فآية الآيات مليئة بالآيات فأنَّى لك تصل إلى شكر الله على تلك الآيات التي لا حصر لها وتلك النِّعم التي لا إحاطة لك بكنهها ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النَّحل: ١٨ وتأمَّل كيف ختمت الآية بالمغفرة والرَّحمة لعلم الله أنَّ الإنسان مهما بلغ من الاجتهاد في تقصِّي نعم الله عليه ليشكرها ويُؤدِّي حقَّها ما استطاع ولعجز فلو آخذه الله بتقصيره لعذَّبه لكنَّه أشفق عليه وأخبره بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لأنَّ الأمر أكبر من أن يُدْرَك والنِّعم أكبر وأوسع من أن تُحْصَى بل الأعجب هو ما بعد تلك الآية ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النَّحل: ١٩ . ٢١ والتي أثبت الله فيها أنَّه الخالق وأنَّ ما سواه لا قدرة لهم على الخلق. إذن فالذي يخلق هو الذي يملك والمالِك الحقّ هو الخالق الحقّ.. تلك هي آيات الله إليك فانظر كيف تشكرها؟

قال الشَّاعر:

تَبَارَكَ مَنْ شُكْرُ الوَرَى عَنْهُ يَقْصُرُ = لِكَوْنِ أَيَادِيْ جُوْدِهِ لَيْسَ تُحْصَـــــرُ
وَشَاكِرُهَا يَحْتَاجُ شُكْراً لِشُكْــــرِهَا = كَذَلِكَ شُكْرُ الشُّكْرِ يَحْتَاجُ يُشْكَــرُ
فَفِيْ كُلِّ شُكْرٍ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَـــةٍ = بغَيْرِ تَنَاءٍ دُوْنَهَا الشُّكْرُ يَصْغُـــرُ
فَمَنْ رَامَ يَقْضِيَ حَقَّ وَاجِبِ شُكْرِهَا = تَحَمَّلَ ضِمْنَ الشُّكْرِ مَا هُو أَكْبَــرُ
تُسَبِّحُهُ الحِيْتَانُ في الْمَا وفي الْفَـــلاَ = وُحُوْشٌ وَطَيْرٌ في الهَوَاءِ مُسَخَّــــرُ
وَفي الفُلْكِ وَالأَمْلاَكِ كُلٌ مُسَبِّـــحٌ = نَهَاراً وَلَيْلاً دَائِماً لَيْسَ يَفْتُــــــرُ
تُسَبِّحُ كُلُّ الكَائِنَاتِ بِحَمْـــــدِهِ = سَمَاءٌ وَأَرْضٌ وَالجِبَالُ وَأَبْحُــــــرُ
جَمْيعاً وَمَنْ فِيهِنَّ وَالكُلُّ خَاشِـــعٌ = لِهَيْبَتِهِ العُظْمَى وَلاَ يَتَكَبَّـــــــرُ
لَهُ كُلُّ ذَرَّاتِ الوُجُوْدِ شَوَاهِــــدٌ = عَلَى أنهُ البَارِيْ الإِلَهُ المُصَـــــوِّرُ
دَحَا الأَرْضَ وَالسَّبْعَ السَّمَاوَاتِ شَادَهَا = وَأَتْقَنَهَا لِلْعالَمِيْنَ لِيَنْظُـــــــرُوا
وَأَبْدَعَ حُسْنَ الصُّنْعِ في مَلَكُـــوْتِهَا = وَفي مَلَكُوْتِ الأَرْضِ كَيْ يَتَفَكَّرُوا
وَأَوْتَدَهَا بِالرَّاسِيَاتِ فَلَمْ تَمِـــــدْ = وَشقَّقَ أَنْهَاراً بِهَا تَتَفَجَّــــــــرُ
وَأَخْرَجَ مَرْعَاهَا وَبَثَّ دَوَابَهَـــــا = وَلِلْكُلَّ يَأَتِي مِنْهُ رِزْقٌ مُقَـــــدَّرُ
مِنْ الحَبِّ ثُمَّ الأَبِّ وَالقَضْبِ وَالكَلاَ = وَنَخْلٍ وَأَعْنَابٍ فَوَاكِهُ تُثْمِــــــرُ
فَأَضْحَتْ بِحُسْنِ الزَّهْرِ تَزْهُوْ رِيَاضُهَا = وَفي حُلَلٍ نسجُ الرَّبِيْعِ تَبَختَـــــرُ
وَزَانَ سَمَاءً بِالمَصَابِيْحِ أَصْبَحَتْ = وأَمْسَتْ بِبَاهِيْ الحُسْنِ تَزْهُوْ وَتَزْهَـــرُ
تَرَاهَا إِذَا جَنَّ الدُّجَى قَدْ تَقَلَّدَتْ = قَلاَئِدَ دُرِّيٍّ لِدُرٍّ تُحَقِّـــــــرُ
فَيَا نَاظِراً زَهْرَ البَسَاتِيْنَ دُوْنَهَـــا = أَظُنُّكَ أَعْمَى لَيْسَ لِلْحُسْنِ تُبْصِـــرُ

فإذا انطلقنا للشَّمس وجدنا أنَّ آيتها هي ذرَّة الهيدروجين أصلاً فهي أساسها ولبنة بناؤها الأصليَّة وبمثلها سائر نجوم السَّماء. فإذا تعمَّقنا في البحث في السَّماء الدُّنيا وجدنا أنَّ آيتها هي عناقيد المجرَّات أو نسيج المجرَّات (الحُبُك) فإذا زدنا البحث عمقاً وجدنا أنَّ آيتها هي المجرَّات الفرديَّة فإذا زدنا البحث عمقاً وجدنا أنَّ آية المجرَّة الفرديَّة هي النُّجوم فإذا زدنا البحث عمقاً وجدنا أنَّ آية النُّجوم كمثل آية الشَّمس الهيدروجين.. ما الحكاية؟ إنَّ كلَّ شيءٍ يرجع في النِّهاية لشيءٍ واحدٍ لا يختلف من مكانٍ لآخر.. ولا من مخلوقٍ لآخر فذرَّة الهيدروجين في النَّبات هي بعينها التي في الحيوان والإنسان هي بعينها التي في الشَّمس والقمر والنُّجوم وهي بعينها التي في السَّماء وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه الواحدُ فلمَّا كان مرجع كلَّ شيءٍ إلى شيءٍ واحدٍ كان ذلك لا معنى له إلا أنَّ الخالق واحد والمالِك واحد فخالقُ كلُّ شيء هو مالِك كلُ شيء. إذن فالكون كلُّه تربطه وحدة خاصَّة تدلُّ على الواحد الأحد لهذا يقول الله مقرِّراً ذلك ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ١٠٢ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ فاطر: ٣ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ آل عمران: ٢٦ ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٢٠ فالهيدروجين يمثل أكثر من ٧٠ % من كتلة الكون المنظور وكأنَّ المجرَّات ما هي إلا أسماك صغيرة تسبح في بحرٍ هائل من الهيدروجين

قال أبو نواس في وصف النَّرجس:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ = إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيــــكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصــاتٌ = بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ = بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيــــكُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا خَيْرُ الْبَرَايَــــا = إِلَى الثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ الْمَلِيــكُ

وقال غيره:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَــا = مِنْ الْمَلِكِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ كَانَ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا = أَلا كُلّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ[1]
تُشِيرُ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَــا = فَصَامِتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ

رسائل الكائنات

قلنا بأنَّ كلَّ شيءٍ تتأمَّلُ فيه تجد له أو فيه آية دالَّة على الله ولكن بصورة مختلفة في الظاهر لكن جوهرها واحد وحقيقتها واحدة وضربنا مثلا بنباتٍ ما خرجنا من البحث فيه بآيات تلو آيات انتهت إلى ذرَّة الهيدروجين وقلنا بأنَّ للكون لغة مختلفة عن لغتنا العربيَّة ونحن إذا كانت لغتنا الجميلة مكوَّنة من ٢٨ حرفاً فلقد رأينا وسمعنا ما لا يُعدُّ ولا يحصى من الكلمات والجمل المركَّبة من تلك الحروف فهي تتشكَّل تارة فتكون اسماً ويتشكَّل جزءٌ آخر منها فيصير فعلاً وذاك صفة وهذا حرف وذاك فاعل وذاك

[1] في الصَّحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِر، كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ [متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان، كتاب الشعر رقم ١٤٥٤]

مفعول وهكذا.. الخ برغم أنَّها محصورة في عدَّة ملايين شخص وفي بقعة صغيرة من كوكب لا وزن له ولا قيمة إذا ما قورن بالمجرَّة مثلاً فكيف بذلك الكون العظيم الذي لا نستطيع إدراكه ولا رؤيته كاملاً.. إنَّ أكبر وأحدث التِّليسكوبات لها قدرة محدودة في تقريب المجرَّات والسُّدُم بعدها تقف عاجزة ولا تعرف باقي الكلمات والجمل الكونيَّة فتصغي السَّمع إلى الرَّادارات التي تترجم الموجات اللاسلكيَّة والتي هي بدورها جزء من هذه الُّلغة وتتركَّب من نفس الحروف.. فإذا رجعنا لأرضنا وقفنا عاجزين عن حصر مخلوقات الأرض على تنوّعها واختلافها في البرِّ والبحر والجوِّ فإذا غُصنا في أعماق الأرض كانت أجهزتنا عاجزة عن الاختراق إلا عدَّة مئات من الكيلو مترات وباقي جمل الأرض وكلماتها الباطنة لا نراها بل نتحسَّسُ عليها بالأجهزة الحسَّاسة.. ثمَّ لو تعمَّقنا في المادَّة وصولاً إلى الذَّرَّة لما استطعنا تصويرها ولا معرفة شكلها الحقيقيّ وإنَّ ما نراه ونسمعه عن الذَّرَّة محض افتراضات قد تصح وقد لا تصح. كون كهذا مُترامي الأطراف اتِّساعاً ومُتناهي الدِّقَّة في الصِّغر تُرى كم يلزمه من حروف لكي تكتب كلَّ هذه المخلوقات كما نراها بأعيننا؟ إنَّه على الأقل ليحتاج لمليون حرف حتَّى يتسنَّى لها أن تتشكَّل في تباديل وتوافيق مختلفة ليخرج لنا كلَّ هذا الكون بكلِّ ما فيه الحي والجماد! نعم كون كهذا كان محتاجاً لمثل هذا العدد من الحروف حتَّى يتشكَّل لما نراه لكن هذا في حالةٍ واحدةٍ فقط.. لو لم يكن خالقه الله! ليس هذا فحسب بل لو لم يكن الله عزيزاً وعزَّته ليس من جنس عزَّة البشر لكان للكون شأن آخر. فالمتأمِّل في صفة العزَّة الإلهيَّة ليجد العجب العجاب والذي معه يُسلب لبُّ أولي الألباب.

ولعلَّ من تجليَّات هذه العزَّة أنَّ الله لما أراد أن يُعبد خلق الكون بما فيه فكان من تمام العزَّة أن جعل الكون كتابه المفتوح لكلِّ من يودُّ القراءة دونما استئذان من أحد فهذا الكتاب لا يُباع ويُشترى ولا يُؤجَّر بل هو مُتاحٌ للجميع في أيِّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ فمن حقِّ أيِّ أحد أن يملِّي عينيه في أيِّ صفحة من صفحات الكون شاء في أيِّ وقتٍ شاء. نعم.. في كون الله القراءة للجميع.. لمن درس في المدارس والجامعات ولمن لم ينل حظاً ولا قسطاً من العلم كما فعل الأعرابي الذي تأمَّل في سطور السَّماء ذات الأبراج والأرض ذات الفجاج والبحار ذات الأمواج فعلم أنَّها آيات دالَّات على ربِّها وخالقها ومالكها فآية السَّماء الأبراج وآية الأرض الفجاج وأية البحار الأمواج ثمَّ استدلَّ على وجود الصَّانع بكون الأثر يدلَّ على المسير إذا لا أثر لأقدام دون سير صاحب الأقدام على الأرض وأنَّ الماء يدل على الغدير وأنَّ بعرة البعير تدلَّ على وجود البعير فعلم أنَّ هُناك الذي سبق ذلك كلَّه العليم الَّلطيف الخبير فحيثما وجدتَّ ختماً على رسالةٍ لابدَّ أنَّ هُناك من ختمها.. نعم.. القراءة للجميع.. وتأمَّل في أوَّل ما نزل من القرآن﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ العلق: ١ وانظر كيف قرن القراءة بالخلق أي قرن استجابتك للأمر بالقراءة بأنَّها دليل على الخالق وإذا عرفت الخالق عرفت أنَّه مالِك فعرفت قدرك وأنَّك لا تملك شيئاً ولا تساوي شيئاً وأنَّك إليه راجع وعليه تستقيم جوارحك وقلبك على طاعة الواحد.. إذا قرأت وأحسنت القراءة وعلمت لغة القراءة وحروفها جيِّداً حتماً ستصل وستفهم وستعلم ما لم تكن تعلم ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق: ٥

لذا كانت عزَّة الله في اختيار حرف واحد فقط لا يراه أحد ولم يره أحد إلى الآن ليكون صاحب الشَّرف في تلك الكلمات والجمل الكونيَّة المشاهدة في الآفاق وفي الأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فصِّلت: ٥٣

ولعلَّ البعض يتعجَّب كيف تكون هُناك لغة من حرفٍ واحدٍ؟! فنجيب أمسك الكلمات وقطعها بالسِّكين لترى من أي شيء تتكوَّن حروفها.. فإن استطعت أن ترى مالا يُقطَّع إلى أجزاء فأنت حينئذٍ إنسان " سُوبر " ذو بصر خارق وإلا فلتقف عند حدودك البشريَّة وتقنع بأنَّ ذلك الحرف واحد لأنَّك بالفعل مهما حاولت تقطيع شريحة الَّلحم مثلا إلى أجزاء فلن تصل لأكثر



من مسحوق داكن اللون وما عليك إلا طحنه وسحقه بأدوات وأجهزة أخرى ليصبح ذا حبيبات صغيرة للغاية مثل الدَّقيق فإن أضفت إليها قليلاً من حامض الكبريتيك المركَّز ستراها تختفي من أمام عينيك.. ترى أين ذهبت الحبيبات الدَّقيقة هل انتقلت إلى بُعدٍ آخر فلم تعد عينك قادرة على رؤيتها وأين ذهبت الكلمات البروتينيَّة والدُّهنيَّة في قطعة الَّلحم؟ الأمر ببساطة أن قطعة الَّلحم بعدما صارت حبيبات قام حامض الكبريتيك بتجزئتها إلى ذرَّات فرديَّة منفصلة ومفكَّكة فاستحال على عينك إدراكها لأنَّ بصرك محدود لكن الذَّرَّات نفسها لم تُقطَّع إلى أجزاء هذا وإن كانت تتركَّب من إلكترونات وبروتونات ونيوترونات إلا أن الحامض ليس من اختصاصه شطر الذَّرَّات إلى أجزاءٍ دون ذرِّيَّة أوَّليَّة. لذا فإنَّك لحظة اختفاء الكلمات أمامك قد تحوَّلت أو عادت إلى أصلها الحقيقيِّ وهي الحروف البسيطة والتي هي في الحقيقة حرف واحد في أصلها الأصيل ذرَّة الهيدروجين. وبمثل ذلك لو رحت تقطع حروف كلمة " لحم " المكتوبة على ورقة ستصل لنفس النَّتيجة ذرَّة الهيدروجين البسيطة. وما تلك الإلكترونات والبروتونات وما شابهها إلا كالنَّقط أو الهمزات التي يمكنها أن تكمِّل شكل الحرف العام فمثلاً حرف (س) إذا أضفت إليه ثلاث نقاط من فوقه صار (ش) بالمثل فإن أصل حروف كلمات الكون هو ذرَّة بسيطة واحدة اسمها الهيدروجين تتألف من بروتون وإلكترون ولها شكل عام كحرف السِّين فكلَّما أضفت لهذا الحرف نقطاً من الإلكترونات والبروتونات أصبح لديك حرفٌ جديدٌ وهكذا.. وما الفرق بين حرف الأكسجين الذي تتنفَّسه وحرف الكربون الذي هو أساس تركيب المركبات العضويَّة إلا من هذه النِّقاط التي إذا وضعت على الحرف الأصلي صار لديك حروفٌ جديدة تُبنى بها كلمات عديدة كالماء والذي يتألَّف في هذه الُّلغة الكونيَّة من حروف الهيدروجين والأكسجين بنسبة حرفين من الأول إلى حرف من الأخير في حين يتألَّف في لغتنا العربيَّة من الألف واللام والميم والألف والهمزة. ولو نزعت منه نقطة ممَّا سبق بيانه لصار لديك كلمة مختلفة لها مدلول مختلف عن الماء وعلى هذا فقس سائر الكلمات والجمل الكونيَّة بدءاً من الذَّرَّة وانتهاءً بالمجرَّة.. وحتَّى الإنسان.. الكلُّ ينتهي إلى حرف الهيدروجين الأوَّل والذي إن كرَّرته أعطاك ما يُشبه حرف الجر عندنا أو كلمة صغيرة من حرفين وكلما زاد التِّكرار زادت الكلمات والرَّسائل ومدلولها وكلَّما زادت أو نقصت نقطة تغيَّر مدلول الحرف ونشاطه وسلوكه بحسب عدد الحروف والتَّشكيلات. وكأنَّ النِّقاط تشكِّل فيما بينها علامات التَّشكيل من الفتحة والكسرة والضَّمة.. أرأيتم لغة بهذا الشَّكل من قبل؟! هل تعلمون عزَّة كعزَّة الله؟ ها قد خلق الكون كلَّه ورتَّب حروفه وكلماته وسطر بأيدي قدرته المطلقة صفحاته من تكرار حرف واحد فقط.. وسُبحان الله لو كانت الألف في قوله ﴿ الم ﴾ تعني أيدروجين مثلاً والتي منها يتركب سائر حروف الكون فبالله عليكم ماذا يمكن أن تعني باقي الحروف؟! لقد تحدَّى الله العرب أن يخترعوا حرفاً جديداً يُضاف للعربيَّة فعجزوا وتحدَّى الله العلماء أن يأتوا بحرفٍ كونيٍّ واحدٍ من عند أنفسهم فعجزوا عن خلق ذرَّة فما دونها.. مع العلم بأن تلك الذَّرَّة تتألَّف ممَّا هو أصغر منها بكثير! قال الله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ سبأ: ٢٢ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ النَّحل: ٢٠ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ الفرقان: ٣ ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فاطر: ٤٠، الأحقاف: ٤ وقال ﷺ كما ثبت من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ



دَارًا بِالْمَدِينَةِ، فَرَأَى أَعْلاَهَا مُصَوِّرًا يُصَوِّرُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً [1] بقي أن نُشير إلى أنَّ حرِّيَّة النَّظر في ملكوت السَّماوات وكلماته وصفحات الأرض وما فيها من مخلوقات لا يتوهَّم البعض منها الحرِّيَّة المطلقة التي تمكِّنه من الاطِّلاع في بُيوت النَّاس دون إذن بحجَّة أنَّ النَّاس جُزء من هذا الكتاب المفتوح.. كما لا يتوهَّم أحد أنَّ ذلك يجيز له النَّظر إلى النِّساء الأجنبيَّات اللاتي يحرم عليه النَّظر إليهنَّ بحجَّة التَّأمُّل في كتاب الله المنظور من خلال المرأة الجميلة لأنَّه هو الذي أمرك بغضِّ البصر عنهنَّ وأمرهنَّ في الوقت ذاته بالحجاب والسِّتر عن الرِّجال الأجانب. فالله هو الذي خلق لك كلمة البصر ووضعها في عينيك وهو الذي أمرك بالبصر في باقي كلماته واستثنى منها بعض كلمات لا تملكها ولا تملك النَّظر فيها إلا بحقِّها ولابدَّ من التَّقيُّد بقيودٍ مُعيَّنةٍ حتَّى يتسنَّى لك قراءتها والتَّأمُّل فيها كالزَّواج مثلاً فمن خير الأمثلة على ذلك علاقة الرَّجل بالمرأة الأجنبية قبل الزَّواج له أحكام وبعد الخطبة له أحكام وبعد العقد والدُّخول له أحكام فإن طلَّقها فله أحكام وهكذا. ولقد أباح الله لك أن تنظر ولا حرج إلى أمِّك وأخواتك مثلاً فيما دون العورات أمَّا النِّساء وراء ذلك فقد قيَّد الأمر بأحكام خاصَّة وأمرك بغضِّ البصر عن تلك الكلمات الجميلة التي تُسمى النِّساء في الوقت الذي أمرها فيه بحجب تلك الكلمات عن عيون النَّاظرين ليكون في هذا حكمة تنفيذ أوامر الله التَّعبُّديَّة دونما ضجر أو اعتراض فلقد قلنا بأنَّ من تمام الملك أن يتصرَّف المالِك في مُلكه كيف شاء ويأمر مملوكه وينهاه كيفما شاء وإلا كان مصيره الهلاك والعقاب فأراد الله أن يعلِّمك أنَّه لا يحلُّ لأحدٍ أن يطَّلع على شيءٍ من كُتُبه إلا بإذنه وأمره فهو قد أذن لك في الكون العلويِّ وأمرك بذلك والسُّفليِّ وفي الزَّرع والحيوان ونهاك عن فئةٍ خاصَّةٍ من هذه الصَّفحات فلا تطَّلع فيها إلا بإذنه. ولعلم الله المسبق بأنَّ الإنسان من عادته النِّسيان فقد أنزل إليه الرُّسل بكتبٍ من عنده كلٌّ منهم له شرعةٌ ومنهاجٌ والدَّعوة أساسها واحد مع تعدُّد الشَّرائع بما يُوافق أحوال الأمم والشُّعوب وتغيُّر الزَّمان وسُبُل المعيشة. فكما أنَّك تُقلِّب بصرك فيما أذن لك فيه وأنت راضٍ مُطمئن كان لزاماً عليك أن تغضَّ بصرك عن محارم الله وأنت راضٍ مُطمئن لأنَّك يا إنسان لا تملك لنفسك شيئاً وسلَّمت بأنَّ الله الخالق المالِك حكيم فيما يأمر به وينهى عنه فليس أمامك إلا الرِّضا والشُّكر أن وجَّهك لما فيه صلاحك ومنفعتك فهو لم يعبث بكلماته الكونيَّة لتدلَّ عليه فقط بل جعل في كلٍّ منها منفعة ومصلحة لك علمها العالمون وغفل عنها الغافلون. فما عليك إن أردت السَّلامة إلا أن تصغي السَّمع لأمر خالق كلمة السَّمع (الأُذُن) فتقول: لبَّيك ربِّي سمعنا وأطعنا.. وتأمَّل كيف وضع الله هذا الشِّعار وهذا الإقرار في أسمى عبادة وأجلَّها ألا وهي الحجّ فتقول: لبيك اللَّهم لبَّيك لبَّيك لا شريك لك لبَّيك إنَّ الحمد والنِّعمة لك والملك لا شريك لك.. لبَّيك إله الحقِّ لبَّيك.. ولبَّيك تعني طاعة بعد طاعة واستجابة سريعة بعد استجابة وأنت تُقرُّ فيها بأنَّ له الملك وله الحمد أنَّه مالِك الملك لا أحد سواه وإلا لضعت أنت.. والعجيب أنَّ الله قد أذلَّ ألسنة المشركين بأن أخضعها للإقرار بذلك حتَّى وهم على شركهم وعنادهم فقد كانوا يُلبُّون في الجاهليَّة يقولون: لبَّيك اللَّهم لبَّيك لبَّيك لا شريك لك لبَّيك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.. وهو إقرار بأنَّ الله مالكهم ومالِك شركاؤهم وما يملكون.. فادعو كما علَّمك النَّبيُّ ﷺ: لبَّيك اللَّهم لبَّيك.. لبَّيك وسعديك.. والخير في يديك.. والشَّرُّ ليس إليك.. نحن بك وإليك.. تباركت ربَّنا وتعاليت. فمن حديث عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ: « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

---

[1] **متفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب اللباس والزينة، باب: لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة رقم ١٣٧٠]



فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِى لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »[١]. ومن حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ». قَالَ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ – رضي الله عنهما – يَزِيدُ فِيهَا لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ بِيَدَيْكَ لَبَّيْكَ وَالرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ وَالْعَمَلُ[٢]. ليس هذا فحسب بل لابدَّ أن تقرن تلك الطَّاعة والاستجابة بطلب المغفرة والرِّضوان على ما فات وما أنت عليه من عصيان وغفلة وما يمكن أن تعصي الله فيه مستقبلاً.. فهو قد خلقك وهو عزيزٌ دونك ومستغنٍ عنك بذاته وأنت فقير إليه . مهما زادت ثروتك . بذاتك ففقرك ذاتيّ وغناه ذاتيّ وهكذا يجب أن تتعبَّد لله بالتَّأمُّل في أسمائه الحسنى وتطبيق ما يمليه عليك فهمه منها في حدود ما أمر به في كتابه المقروء (القرآن) وبعيداً عن تلبيس الشَّيطان عدوِّك الَّلدود. بل ويجب علينا أن نستعين على قراءة وفهم كتابه المنظور بمحاولة تدبُّر وفهم معاني كتابه المقروء لأنَّ هذا هو كلامه المسموع وتلك هي كلماته المكتوبة التي ننظر إليها فلا يمكن لأحد أن يصف لك ما كتبه الله وأودعه من عجائب وحكم في سماواته وأرضه إلا هو نفسه من خلال ما تكلَّم به إلى جبريل وأمره بأن ينزل به على محمَّدٍ النَّبيِّ الهادي الأمين عليه صلوات الله ورحمته وبركاته..

فما بال القرون الأولى؟

قد يقول قائل: كلامك جميل ولكن أنت تتكلَّم عن الخاتم في عصر الذَّرَّة وفي عصر ما بعد الذَّرَّة بعدما عرف الإنسان كلَّ شيءٍ عنها وبحث في تفتيتها وشطرها وصنع منها القنبلة النَّوويَّة والهيدروجينيَّة واستطاع تسخير الإلكترون في شتَّى مناحي الحياة على المستويات الطبيَّة والزِّراعيَّة والدَّوائيَّة والعسكريَّة والغذائيَّة.. وبناء عليه حددتَّ الخاتم بأنَّه ذرَّة الهيدروجين وهو أمرٌ مقبولٌ جداً ومبهرٌ جداً في هذا العصر لكن ما بال القرون الأولي من لدن آدم عليه السَّلام وحتَّى قبل عصر الذّرَّة الذي نعيش فيه؟ أنيَّ لهؤلاء أن يعرفوا هذا الخاتم؟ والجواب عن هذه الشّبهة يطول جداً لكن سنختصر القول ونجمله بقولنا إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل القرآن وصاغه بأسلوبٍ بليغٍ بديعٍ لا نظير له في جزالة ألفاظه مع سهولتها وقوَّتها واشتملت آيات الله التي تتحدَّث عن الخلق والحياة والنَّبات والحيوان والإنسان والفضاء والسَّماء بما فيها من كواكب ونجوم ومجرَّات.. اشتملت تلك الآيات على ألفاظ تصلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ فإذا قرأها البدويُّ الذي لا يعرف سوى رعي الأغنام أو الزِّراعة يفهمها بحسب ما يُناسب عقله ويصل بها إلى المقصود منها كما سبق عن الأعرابيّ.. وإذا قرأها المتعلِّم الدَّارس فهمها بما تمليه عليه ثقافته وعقله النَّاضج فيصل بها إلى المقصود، وإذا قرأها العالم الرَّبانيّ الذي درس الشَّريعة وعلوم الدِّين فهم منها مقصود الله ولو لم يتدبَّرها لأنَّ معه أصل التَّسليم والانقياد كما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ،وإذا قرأها عالم الطبيعة أو الكيمياء أو الطبِّ فهمها فهماً مختلفاً تماماً عن الأفهام

---

[١] **صحيح**: رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة والليل وقيامه رقم ١٨٤٨]

[٢] **صحيح**: رواه مسلم، كتاب الحج، باب: التلبية وصفتها ووقتها رقم ٢٨٦٨]



السَّابقة والآيات تحتمل فهمه الجديد الذي يُناسب عصر العلم وكلُّ هذه العقول والأفهام وصلت لنفس النَّتيجة وهي وحدانيَّة الله ومُلكه للكون كلِّه بما فيه وقيُّوميَّته عليه فلا هذا يُسفِّه ذاك ولا هذا يحطّ من شأن ذاك فمثلاً قول الله تعالى وهو يحثُّ ويحضُّ النَّاس على التَّأمُّل في الكون لإثبات وحدانيَّة الله ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الغاشية: ١٧ . ٢٠ قرأها النَّاس على عهد رسول الله ﷺ وآمنوا بها وعقلوا معناها بل وسمعها الكفار فأسلموا مع أنَّهم ما فهموا منها معشار ما فهمه علماء العصر الحديث فهم قد علموا أنَّ الإبل تتحمَّل العطش لفتراتٍ طويلة وأن شفتها مشقوقة حتَّى تستوعب الشَّوك الذي يتخلَّل بعض غذائها وخُفَّه مفلطح حتَّى لا تغوص قدمه في الرِّمال ولحمه فيه وهكذا. ونظروا للسَّماء فعلموا أنَّها واسعة وأنَّ نجومها بعيدة فمن الذي وضعها هُناك ورفها بغير أعمدة ظاهرة للعيان؟ وهكذا، أمَّا فهم علماء اليوم لم يعد قاصراً على مُجرَّد الكلام والتَّأمُّلات النَّظريَّة فحسب بل الفهم الآن على المستوى المعمليّ مُستوى التَّجربة والاختبار والتَّحليل الكيميائيّ والفيزيائيّ لكلِّ شيء ممَّا يخرجون معه بأبحاثٍ لا حدَّ لها وكُتُب ومجلَّدات ضخمة في مسائل كانت تمرُّ مرَّ الكرام على غيرهم ممَّن سبقهم فيزداد إعجاز الله في الآية وضوحاً ويزداد معه اليقين والإيمان فلا السَّماء التي نظر إليها الأقدمون ووقفوا عند حدِّ كونها بعيدة مُترامية الأطراف هي السَّماء التي بنيت لدراستها وتصويرها المراصد والتليسكوبات العملاقة بل تعدَّى الأمر إلى السَّفر فيها وإرسال المركبات الفضائيَّة وإنشاء المحطَّات الدَّوليَّة تمهيداً لسكنى الإنسان في الفضاء فلقد أحصوا نجومها ومجرَّاتها وقدَّروا أحجامها وأبعادها وشدَّة ضوئها وسُرعة جريانها وكيف تُولد وكيف تموت وتختفي مع أنَّ الآية هي هي لم تتغيَّر لكن وسيلة الفهم والكشف والإدراك هي التي تغيَّرت.. ولقد أخبرنا القرآن في غير ما آية عن رسله الكرام وهم يحثُّون أقوامهم الكافرين والمشركين على التَّأمُّل في الكون وفي خلق السَّماوات والأرض والجبال والأنهار وإنبات الحدائق ذات البهجة والزُّروع والفواكه وما يخرج من بطون الأنعام من لبنٍ مُعجزٍ في تكوينه وطريقة خروجه وفي فوائده الصِّحيَّة والغذائيَّة ففي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه الواحد المهم أن تسعى لفهم الآيات وهو سيهديك إلى سواء الصِّراط وإلى المقصود ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت: ٦٩ ويكفي ما أيَّد الله به رسله من مُعجزاتٍ وبراهين على صدق رسالته وعلى وحدانيَّة الله ومُلكه للكون بما فيه.

وقال الملك.. كُنْ فيكون!

تأمَّل في كلمات الله الكونيَّة والتي خُلقت أو كُتبت بناءاً على أمرٍ لفظيّ بكلمة (كُنْ) الحرفيَّة فهذا غير ممتنع عقلاً خاصَّة بعدما رأينا بأعيننا كيف يتحوَّل كلام الإنسان بأمرٍ منه إلى كلمات مقروءة على شاشة الكمبيوتر أو يُنفَّذ الأمر اللَّفظيّ إلى جمع حروف وكلماتٍ مُعيَّنة داخل هذا الجهاز ليتمَّ استرجاع معلومات أو عرض صورة.. وكلّ هذا بأمرٍ لفظيّ من الإنسان فهو قد يأمر الكمبيوتر افعل كذا.. أدر برنامج كذا.. ادخل على النِّت. افتح كذا.. اطبع كذا فيتمّ تنفيذ الأمر ببصمة صوتيَّة خاصَّة لكلِّ مُستخدم وقد يكون الأمر لكمبيوتر مُتَّصل بالآلات في مصنع تقوم بمجرَّد الأمر بتصنيع المنتج المطلوب بالمواصفات والأعداد المطلوبة فيتحول الأمر اللَّفظي الذي بدأ بكلمة إلى أشياء مادِّية ملموسة وهذا من الإنسان فما بالنا بالله!

لكن المعلوم أنَّ الله جلَّ وعلاً قد خلق مخلوقات الأرض بالأمر (كُنْ) ثمَّ خصَّ آدم والعرش وبعض الأشياء بأن خلقها بيده تشريفاً فأمَّا آدم فهو آخر مخلوقاته على الأرض وخليفة الجنِّ في الأرض وبرغم اختلاف طريقة الخلق للَّحم والدَّم ووظائف

أعضاء الإنسان والحيوان إلا أنهّما مشتركون في كلِّ شيء.. شكل القلب وطريقة عمله وشكل المعدة.. الكبد.. الطُّحال.. الأمعاء.. الجلد. الشَّعر.. الأعين.. والاختلاف بينهما فقط في عدد وترتيب الجينات على الشَّريط الوراثيّ. انظر كيف كادت الصنعتان تنطبقان (ما كان فيها بالأمر كُنْ) (وما كان منها بيد الله) فلولا أنَّه قدر اختلاف آدم في الشَّكل والقامة وطبيعة الرِّسالة على الأرض لما كان هُناك فرق بين الإنسان والحيوان وبخاصَّة الثَّدييَّات عموماً من حيث البنية والتَّركيب الدَّاخليّ.. ولعلَّها رسالةٌ من الله لبني آدم ليعلموا أنَّه على كلِّ شيءٍ قدير وأنَّ ما يريده مهما تعدَّدت الوسائل فهو كائن ولابدّ وعلى الكيف الذي يريده لا صارف له ولا مغيِّر له وأنَّه لا يعجزه شيء وأنه كان من الممكن أن يخلق الإنسان كالحيوان يمشي على أربع في باقي حياته وليس في طفولته فقط إلا أنَّه أحبَّ أن يُبيِّن له مدى تفضُّله عليه وتكريمه له على سائر الخلق. لكن هل الأمر بكُنْ في حالة الإنسان يُشبه أمر الله للشَّيء (كُنْ)؟ والجواب بالطبع لا؛ لأنَّ الإنسان إذا أمر الكمبيوتر أن يفعل أمراً ما ببصمةٍ صوتيَّة فهو محتاج لسلامة صوته على الدَّوام وإلا لو أصيب ببردٍ وتغيَّر صوته لما استطاع الجهاز التَّعرف عليه وأيضاً هو محتاج للكهرباء أو للبطاريَّة لاستمرار عمل الجهاز فإن حدث انقطاع للتَّيار أو تلفت البطاريَّة فأين أمره ونهيه فضلاً عن كونه يأمر الكمبيوتر فقط فأين أمره لكلِّ ما في الكون ثمَّ هو يأمر الكمبيوتر أن يصنع أو ينفِّذ أمراً من شيءٍ موجود كخامات التَّصنيع في مصنعٍ ما أمَّا الله عزَّ وجلَّ إذا قال لشيءٍ ما: كُنْ يكن بلا زمن لا يحتاج لشيء لتنفيذ أمره ولا يتوقَّف تنفيذه على شيء ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ البقرة: ١١٧

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٤٧

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٥٩

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ٧٣

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ النحل: ٤٠

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مريم: ٣٥

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس: ٨٢

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ غافر: ٦٨

الإله الثَّاني!

يقول مُتفلسف: أنت تزعم أنّ وحدانيَّة الإله عُلمت من كون كلِّ مكائن الطَّبع النَّباتيَّة جاءت من مصنعٍ واحدٍ كما أنَّ الكتاب يُطبع بحروفٍ معدنيَّةٍ من مصنعٍ واحد فماذا تقول إذن في كتاب يُطبع من حروف كلٌّ منها جاء من مصنعٍ مختلف بل إنَّ جُزءًا منها قديم وجُزءًا منها تمَّ استيراده من دولةٍ أجنبيَّة.. بل إنَّ بعضها من البلاستيك وبعضها من الحديد ثمَّ ماذا تقول في الكتاب الذي طُبع عدَّة مرَّات وفي كلِّ طبعة كانت دار الطِّباعة مختلفة عن الأخرى ومواد الطِّباعة مختلفة فهذه طبعة عاديَّة وتلك مُلوَّنة هل نقول بتعدُّد الآلهة لتعدُّد مصادر الحروف المعدنيَّة أم بتعدُّد الآلهة لتعدُّد الطَّبعات؟! والجواب على تلك الشُّبهة من وجوه:

أولاً: لا ينبغي إطلاقاً تشبيه صنعة الخالق بصنعة المخلوق مع العلم بأنَّ صنعة المخلوق كلُّها من مخلوقات الخالق وليست بدعة من تأليف المخلوق (الإنسان)

ثانيا: إنَّ تعدُّد المطابع وأماكن صناعة الحروف المعدنيَّة والخامات المصنوعة منها لا يقتضي بحال تعدُّد الآلهة. ولنفرض مثلاً أنَّ ملِكاً من مُلوك الدُّنيا أمر بإنشاء عدَّة مطابع في كلِّ محافظة أو ولاية مطبعة، وطلب من كلِّ واحدةٍ أن تطبع كتاب ما ولكن تُنوِّع في طريقة الطبع بحيث أنَّ كلَّ مطبعة تختار مهندسين يُصمِّمون حروفاً ذا أحجامٍ مختلفة، فهذه تطبع الحروف الصُّغرى وتلك تطبع الصُّغرى بخط النَّسخ وهذه تطبع حروفاً كبيرة مُلوَّنة ورابعة بخط آخر غير السَّابق فتعدُّد الخطوط مثلاً يستلزم لتمام المنافسة تعدُّد أشكال الحروف المصنوعة كلٌ بحسب الخطِّ المراد طباعة الكتاب به، ناهيك عن مطبعةٍ تقوم بعمل طبعة مترجمة للغة أخرى وعندئذٍ تعدُّد الُّلغات يستلزم تعدُّد أشكال الحروف المستعملة. وأخرى تطبع الكتاب بجميع التَّواليف السَّابقة بل تزيد عليه طباعة كلِّ كلمة بلونٍ مختلف وبرغم تعدُّد الحروف والأشكال والألوان فهي كلُّها من تربة المملكة ومالِكها واحد هو ذلك الملك سواء أكانت الحروف من المعدن أم من البلاستيك. والصَّبغات الملوَّنة كلُّها من صناعة تلك الولايات داخل المملكة. فإذا كان ملك الدُّنيا وهو فقط يمارس مُلكه ويتمتَّع بصلاحيَّاته على مملكةٍ صغيرةٍ في الأرض الأمِّ فكيف بملِك الأرض؟ إذن الذي يملك الأرض يملك حروفها وخاماتها ويملك الطَّبيعة بما فيها وتأمَّل كلمة الطَّبيعة من الطبع والطباعة لكلِّ صنوف المخلوقات وكأنَّ الطَّبيعة هي التَّرجمة العمليَّة العينيَّة لكلمة: (كن) فالكون ما هو إلا تجليَّات أسماء الله الحسنى فالله مالك الطَّبيعة بكلِّ ما فيها بما في ذلك الملوك أنفسهم. والذي يملك الأرض هو مالِك لكلِّ ما يُكتب فيها لأنَّ كلَّ حروف الكتابة ملكه على تعدُّد أشكالها وألوانها ونُعيد السُّؤال من يملك الأرض؟

لكن قد يُؤتى ذلك الملِك هديَّة من ملِكٍ آخر عبارة عن عدَّة حروف معدنيَّة فريدة من نوعها ومعدنها فهل يعني هذا عدم ملكيَّته للكُتب المطبوعة بهذه الحروف؟ ما من عاقل سيقول إنَّ الكُتب تصبح مِلكاً للملِك الآخر لكن تظلُّ شبهةٌ ما قائمة: ما دليلك على كون حروف الأرض كلِّها ومعادنها وخاماتها في سائر الأقطار ليس جُزءًا منها مُهدى من إلهٍ آخر إلى إله الأرض؟

ونقول: ومن أين جاء الملك الثَّاني بالمعدن الذي صنع من حروف الهديَّة؟ والجواب: من باطن الأرض أي من نفس الكوكب. إذن فهو لم يأتِ بشيءٍ جديد من اختراعه هو فالمعدن موجود مثله في كلِّ مكان وله نفس التَّركيب والوصف والخواص.. لكن إذا نظرنا في هديَّة إله لإله أتكون الهديَّة من جنس مخلوقات الإله المهدي إليه أم ينبغي لمن ادَّعى الألوهيَّة أن يكون له مخلوقاته الخاصَّة ولبناتها الخاصَّة والمختومة بخاتمه الخاصّ حتَّى يُسمَّى إلاهاً بحق وإلا لو جاء بمثل ما جاء به الإله الأوَّل لكان إمَّا مُقلِّداً ولم يخلق على غير مثال وإمَّا أنَّه لصٌ سرق حروفاً من مصنوعات الإله الأوَّل وأهداها إليه. وعلى أية حال فهذه صفات نقصٍ لا ينبغي أن يتَّصف بها إله لأن عدم القدرة على الخلق وادعاء ما لا يقدر عليه صفات عجز بيِّن لا يُوصف بها إلا مخلوق فكيف إذن يتبيَّن لنا أن جميع حروف ماكينات النَّباتات والحيوانات لمالكٍ واحدٍ وأنَّها جاءت من مصنعٍ واحدٍ؟ قلنا في مقالٍ سابقٍ إنَّ ذلك يُعرف بختم الملِك على كلِّ ما خرج من مصنعه ذلك الختم أو الخاتم الذي لا يُرى مُنفرداً وهو الذَّرَّة وما صغُر فأينما بحثت عن مُكوِّنات أي مادَّة وجدتَّ الأصل هو ذرَّة الهيدروجين كأساس قابل للزِّيادة والتَّوليف فهو حرفٌ واحدٌ في ذاته يدلُّ على وحدانيَّته كحرف لا ثاني له ولا نظير له في حروف لغات أهل الأرض ومنه يتكوَّن كلُّ الحروف الأخرى من المركبات والعناصر والغازات والتي بدورها يتخلَّق منها الأحياء ويؤول إليها مصير الأموات والجمادات، فدلالة هذا الحرف على كونه واحداً يعني أنَّه

حرفٌ فريدٌ من نوعه لأنَّ الُّلغة التي تتكوَّن من حرفٍ واحدٍ لا يمكن أن تكون لغة أرضيَّة، كما لا يمكن أن يكون ذلك الحرف قد خلق نفسه لأنَّه لابدَّ أن يُوجد قبل نفسه حتَّى يخلق نفسه، وهذا محال عقلاً فضلاً عن أنَّ كلَّ جُزء فيه يحتاج إلى الدَّوران المستمر وإلا هلك وانشطر فكان ذلك محتاجاً لغيره والمحتاج لا يكون أبداً إلهاً. فالذي وضع هذا الحرف في كلِّ طابعة نباتيَّة وفي كلِّ خليَّة حيوانيَّة أو إنسيَّة وملأ به أرجاء السَّماوات والأفلاك لابدَّ أنَّه مالِكه وخالقه وأنَّه محيط بكلِّ هذه الحروف وأنَّه أكبر من أكبر مخلوقاته وعلى هذا فقس جميع معادن الأرض التي تتكوَّن من نفس الذَّرَّات هي وما يُصنع منها من حروف في قلب النَّبات وخارجه مِلك لمِلكٍ واحد وبناء على هذا تكون دلالة الوحدة الذَّرِّيَّة في كلِّ نسيج وفي كلِّ مركب وفي كلِّ مادَّة وراثيَّة أعمُّ وأشمل وأدقُّ في الوقت ذاته من اعتبار النَّباتات كلٌّ منها حرف.. بل إن من الأفضل اعتبار كلِّ نباتٍ حرف أو لفظ ك (يس) وأنَّه مُكوَّن من حروف أدقّ هي الذَّرَّات لتملأ بها أرجاء كلمة (يس) فتكون الآية ظاهراً وباطناً ويكون النَّبات ظاهراً وباطناً دلالة على خالقه الأوحد ومالِكه العظيم.

ممَّا سبق يظهر لنا أنَّ أدلَّة وحدانيَّة الله المِلك بعدد ذرَّات الكون كلِّه في المستوى الدَّقيق وبعدد أصناف الأحياء كماً ونوعاً على المستوى العام ليكون كلٌّ منها شاهداً مُستقلاً على حدة على وحدانيَّة الله جلَّ وعلا. ويكون لسان حال كلِّ نبات: أنا مصنوع الواحد في هذا الشَّكل.. ولسان حال نبات من صنفٍ آخر: أنا مصنوع الله في هذا الشَّكل..وبمثل ذلك كلُّ صنف من الأحياء على الأرض. وتأمَّل في كون الحرف الذي كتب به مخطوط الكون المشاهد هو بعينه خاتم المِلك، وهو بعينه دليل وحدانيَّته وأيضاً دليل عزَّته لأنَّ الذي يتوصَّل إلى وحدانيَّة الله بالتَّأمُّل في ما لا يراه لشدَّة صغره فلأن يصل إلى إثبات الوحدانيَّة بما هو أكبر أولى وأولى لذا فالله له عزَّة عجيبة لا تُضاهيها عزَّة.وكأنَّها رسالة تأنيب إلى جنس الإنسان المتغطرس الذي أعرض عنه ونئا بجانبه تقول له: يا عبد الله رغم أنفك إن لم تقرّ وتسجد طوعاً فما أنت في هذه المخلوقات التي تشهد وتسجد؟ أنت لا شيء. وعصيانك لن يغيّر من القضيَّة شيئاً فلكأنِّي بك يا إنسان تحصيل حاصل ووجودك في الكون كعدمه فالكلُّ يشهد بالوحدانيَّة من الذَّرَّة إلى المجرَّة والملائكة يشهدون وما لا تعلم من الخلائق فما تكبُّرك إلا دليل حماقتك وجهلك فتأمَّل في نفسك وفي خلقك وفي معجزات جسمك وحياتك وأنت بهذه الرَّوعة وهذا الجمال وفي الوقت ذاته لا قيمة لك.. ما أحقرك.. ما أهونك.. ولنفسك ما أظلمك.. وقد شهدت ذرَّات جسمك وسبَّحت رغم أنفك ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٤٤

الله يرفض كوكباً من الذَّهب!

قلنا من قبل لو أنّ هُناك إلهاً أهدى لله هديَّة فإنَّها لا تنفك إمَّا مصنوعة من خامات بناء السَّماوات والأرض أو أنَّها من صُنع الإله الجديد وحيثما لم يقم الإله الجديد بإثبات خلقه شيئاً جديداً كان هذا مِعوَل هدم يهدم به عرش ألوهيَّته المزعومة فلا إله إلا الله.. إخبار من الله.. وشهادة من الملائكة..وشهادة من أولي العلم.. فضلاً عن شهادة الكون بكلِّ ما فيه أنَّه لا إله إلا الله وعليه فالله ما كان أبداً ليقبل هديَّة من أيِّ أحد لأن معنى ذلك إثبات إله آخر غيره وهذا محال ثمَّ هذا اتِّهامٌ لله أنَّه محتاج للهديَّة خاصَّة وأنَّها مصنوعة من أجزاء ممَّا خلق... كيف يقبل الله هديَّة مهما كان شكلها وحجمها وقيمتها وله مُلك السَّماوات والأرض وعنده خزائن السَّماوات والأرض؟!.. سُبحان الله إنَّ هذا شيءٌ عُجاب! ولعلَّ هذا هو سِرُّ عدم قبول فدية من الكافر

لينجو بها من النَّار ولو كانت ملء الأرض ذهباً.. فليست علَّة عدم قبول الفداء أنَّ الكافر عصى الله ولم يؤمن أو أنَّه أشرك معه غيره أو أنَّه تمرَّد عليه وحاربه وانتقص من قدره.. لا بل إنَّ السِّرَّ في رفض قبول ملء الأرض ذهباً وهو الفرض المستحيل أصلاً؛ لأنَّه يستحيل لبشر كائناً من كان أن يملك الأرض فضلاً عن أن تتحوَّل كلُّها لكوكب من الذَّهب ثمَّ إن هو تخلَّص عن حبِّه للذَّهب وفتنة الذَّهب وافتدى به لن يُقبل منه.. السِّرُّ أنَّ هذا الكوكب مِلك لله وحده.. يملكه الله بما فيه من ذهب بل ويملك الكافر نفسه فأنَّى له الفداء.. أيعطيه جُزءًا من ملكه ليفدي نفسه من النَّار.. هذا محال عقلاً.. هب أن جماعة اختطفوا رجلاً وطالبوه بفدية حتَّى لا يقتلوه أيعقل أن يأتيهم بالفدية من مالهم هم ويُقدِّمها لهم؟.. طبعا لا.. كذلك لا يُعقل بحال أن يقبلوا الفدية من أموالهم.. فإذا كان هذا مع البشر فكيف بالله ولله المثل الأعلى وكأنَّها رسالةٌ من الله.. لن ينفعك أحد.. لن ينفعك شيء.. لن يفديك إلا عملك الصَّالح.. لأنَّني أنا الذي أحدِّد نوع الفداء ومقداره.. لن تُفلت من عقابي إن لم تلقني بإيمانٍ وبقلبٍ سليم.. واقرأ معي قوله تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ آل عمران: ٩١

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٣٦

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ يونس: ٥٤

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ الرعد: ١٨

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ الزُّمر: ٤٧

قال الله في الحديث الإلهيّ: حديث أَنَسٍ، يَرْفَعُهُ، أَنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتُك مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لاَ تُشْرِك بِي، فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْك [متَّفق عليه: اللُّؤلؤ والمرجان، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ١٧٨٨]

وعند البخاريّ من حديث أنس بن مالك ﷺ أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقول: (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول نعم فيقال له قدكنت سُئلت ما هو أيسر من ذلك [صحيح: رواه البخاري، كتاب الرقاق، كتاب: من نوقش الحساب عذب ٦١٧٣] وعند مُسلم عنه أيضاً ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « يُقَالُ لِلْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِى بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ قَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ ».[صحيح: رواه مُسلم، كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ٧٢٦٣] فهل من شريكٍ لله في الخلق؟ وهل من شريكٍ لله في الملك؟ وهل من شريكٍ لله في الأمر والتَّدبير؟ لما انتفى وجود الشَّريك انتفى قبول فداء المشرك ولو ملء الأرض ذهباً.

ولا زال التَّحدِّي قائماً

إمعاناً من الله جلَّ وعلا في تأكيد أحقيَّته للملك والملكوت فقد تحدَّى خلقه كلهم أن يأتوا بهذا الشَّريك الذي يعبدونه من دونه أو يأتوا بدليل على كون هؤلاء الشُّركاء يستطيعون الخلق بل تحدَّاهم أن يأتوا بأي شيء يثبت أنَّهم آلهة والقرآن خير شاهد قال الله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ الأنعام: ٢٢

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ يونس: ٣٤، ٣٥

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الرُّوم: ٤٠

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأحقاف: ٤

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) ﴾ لقمان: ١٠، ١١

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الرَّعد: ١٦

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فاطر: ٤٠.. ولا زال التَّحدِّي قائماً

وقال الملك... أنا العزيز

من تمام كمال صفة (الملك) أنَّ الله عزيز وتكلَّمنا من قبل عن طرفٍ من عزَّته التي لا تُشبهها أيُّ عزَّة. والآن نُوسع في سرد أنواع العزَّة ثمَّ نخصِّص منها نوع نُفصِّله فعزَّة الله تأتي في القرآن على أنواع منها عزَّة القوَّة وعزَّة الغلبة وعزَّة الْمَنْعة وعزَّة الاستغناء وعزَّة النُّدرة وانعدام الشَّبيه وعزَّة الرِّفعة والمكانة العالية وعزَّة الغنى وعزَّة نفاذ الأمر وامتناع وجود مُكره له على فعل شيء وأخيرا عزَّة طلاقة القدرة نخصُّها بالتَّفصيل فطلاقة قدرة الله تحتاج لتأمُّلات كثيرة لكن نجمل القول مع وقفات سريعة مُترابطة إتماماً لإظهار صفة (الملك) فمن مظاهر طلاقة قدرة الملِك سُبحانه وتعالى أنَّ نفس المخلوق له القدرة على فعل أعمال مُتناقضة مُتباينة ولا سبيل لحصر فوائدها ومضارّها وإمكاناتها كالذَّرَّة والإلكترون حيث يُستخدم أيّ منها في التَّدمير وفي إنبات الزَّرع وفي توليد الحرارة وانبعاث الضَّوء وفي خلق الإنسان وفي إنتاج الأدوية والغذاء والكساء وهي ذات تركيب واحد ونظام واحد! لأنَّ أيّ مُركَّب من عناصر مختلفة لابدَّ وأن يستحيل في النِّهاية إلى مُفردات ووحدات من ذرَّات الهيدروجين ولولا هذا لما سَهُل اكتشاف العناصر وتحليلها وتسخير الذَّرَّة في إنتاج مُركَّبات لم توجد على الأرض من قبل وما ذلك إلا لثبات سُنَّة الله في خلقه وأنَّ الذَّرَّات تعمل بأمره لا قدرة لها من نفسها على تغيير بنائها ولا زيادة إلكترون إلا بسلطان وبأمرٍ يختلف من ذرَّةٍ لأخرى كأن يدخلها إلكترون

مُحمَّل بطاقة تسمح له بذلك أو يغادرها آخر بعد دفع قيمة الشُّحنة وهكذا.. وهذا مفاده أنَّ الكون خُلِق بنظام وليس بانفجار عشوائي للبيضة الكونيَّة المزعومة بل كلُّ شيءٍ تمَّ حسابه بدقةٍ مُتناهية ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩

ولقد اعتادت الفطرة البشريَّة على أنَّ العشوائيَّة لا تُولِّد النِّظام أبداً كما يُقال إنَّ انفجار في مطبعة لا يمكن بحال أن يُنتج مُعجماً مُرتَّباً.. وأيضاً كون تركيب ذرَّة الهيدروجين ثابت في كلِّ عنصر بعد تحليله إلى أجزاء وإلى لَبِنَاته الأولى دليل قاطع على أنَّ خالقها واحد وإلا لتعدَّدت أشكال ذرَّة الهيدروجين ولأصبح من المستحيل فهم سُلوك الذَّرَّات وإن كان لكلِّ عنصر نظير أو نظائر حتَّى الهيدروجين فهذا له حِكَم ومدلولات لعلَّ أهمَّها هو إثبات طلاقة القدرة وأنَّ الذي خلق هذا بنظامٍ ثابت قادر على خلق ما لا نظام في ظاهره.. فضلاً عن كون النَّظائر ما هي إلا زيادة أو إضافة على الَّلبنة الأولى (ذرَّة الهيدروجين) فهي ليست بدعاً في ذاتها ولا خلقت نفسها ولا تمَّ خلقها بواسطة إله آخر وإلا لو كان الهيدروجين من خلق الله ونظائره كلٌّ له إله فأين تلك الآلهة ولماذا لم تُعلن عن نفسها حتَّى الآن؟

ويُستفاد من هذا أنَّ الإله الذي يخلق ولا يستطيع أن يُعلن عن نفسه فهو عاجزٌ عن الكلام وعن خلق من يُبلِّغهم أنَّه خالق وإلا فكيف يعرف غيره أنَّه خالق فضلاً عن خلق رُسُل من جنس تكوين مُغاير للمُرْسَل إليهم فضلاً عن خلق النِّظام الكوني السَّماوي العُلوي والسُّفلي على تعدُّد صُوره وأشكاله. ثمَّ إنَّ الثَّابت أنَّ كلَّ نظام الكون واحد بدءاً من الذَّرَّة وحتَّى الأرض والقمر ثمَّ كلاهما مع الشَّمس ثمَّ جميعهم مع المجرَّة وتلك مع مثيلاتها.. الكلُّ يَسْبح حول مركز أكبر وهكذا وهذا ليس إلا لوحدة الخالق وإلا لوجدنا كلَّ جرم يَسْبح مع نفسه في أيِّ اتِّجاه يحلو له ولما كان هذا غير مُشاهَد في عموم نظام الكون في الآفاق وفي النَّفس وفي الذَّرَّات عُلم أنَّ الخالق واحد وحتَّى لو وُجِد جِرم أو ذرَّة لا تتقيَّد بهذا النِّظام فهي مأمورة بذلك فتنفيذها لأمرٍ ما وإن بدا لك شُذوذاً عن النِّظام هو عين النِّظام وهو دلالة وجود من له القدرة على التَّدخُّل في أيِّ حدثٍ كوني وإحياء وخلق وإفناء وإماتة وإلا فمُعجزات الأنبياء كلّها خوارق للعادة وللنِّظام وعلامات قيام السَّاعة كلّها خوارق للنِّظام والجنَّة والنَّار وما فيهما خوارق لما ألفناه من المأكل والمشرب وطريقة التَّنعُّم والتَّعذيب على التَّرتيب.. فهذا معناه أنَّ ما كان بنظام فهو مأمور بذلك لا يحيد عنه إلا بصارف إلهي سواء أتمَّ مُباشرةً من الذَّات العَلِيَّة أو برسولٍ من الملائكة أو بجندٍ من جنده وعندئذٍ يكون مُراد الله وحكمته وإن كُنَّا نراه بعقولنا القاصرة شُذُوذاً عن النِّظام يكون عندها هو عين النِّظام لأنَّ عُقولنا المحدودة وفهمنا القاصر ليس حُجَّة على سائر أنظمة الكون وإلا فالمتأمِّل في كوكب الأرض يجده قد مال عن محور الدَّوران المفترض بعقل الإنسان ٢٣,٥ درجة وعلى هذا فقس كلَّ الكواكب والأقمار.. وهذا من تمام الحكمة داخل النِّظام العام.. فالتَّنوُّع والاختلاف في الدَّقائق المحكومة بنظام واسع هو عين إثبات الحكمة الإلهيَّة. وإلا فبأيِّ شيءٍ يُرينا الله صفات القدرة والحكمة والقوَّة.. لابدَّ إذن من إحداث تغيير محسوب بدقَّة في النِّظام العام بحيث لا يخرج ما يتمُّ تغييره عن النِّظام. فدوران الأرض بهذا الميل لم يخرجها عن النِّظام العام الذي هو دوران من اليسار لليمين ولا من الدَّوران حول الشَّمس في نفس الاتِّجاه. بالمثل شمسنا تدور حول مركز المجرَّة ومعها سائر المجموعة بمحور مائل عن المستوى السَّطحي للمجرَّة ولهذا حِكَم ليس هذا محلُّ بسطها. بالمثل نجد في سُلوك الكائنات الحيَّة كالبكتريا التي تشذُّ عن طريقتنا في التَّنفُّس بأن تعتمد على أكسدة الكبريت ومنه تحصل على الطَّاقة اللازمة لها. هذا بعينه هو النِّظام لأنَّ الخلل في النِّظام أن تقوم بما نقوم نحن به عندئذٍ سيفسد الجوّ بغازات الكبريت وأكاسيده المتراكمة على مرِّ العصور ويختنق الجنس البشريّ وسائر المخلوقات التي تتنفَّس هوائيًّا.. والحكمة في كون التَّغيير والاختلاف سُنَّة كونيَّة هي عين

النِّظام أنَّ كلَّ الخلق لو تمَّ تصميمهم وخلقهم في كلِّ نُظُم المعيشة والنَّشاط على غِرار سُلوك الإنسان وتركيبه وطريقة تزاوجه ونظام معيشته لاختل النِّظام ابتداءً. ولما كان الله قادراً على خلق سِوى نوع واحد من أنظمة الحياة ولكان هذا قدحاً في ألوهيَّته ونقص في صفات القدرة والحكمة والعلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثانيا: أنَّه لو تحقَّق وتحوَّلت كلُّ الكائنات إلى أحياء مُشابهة للإنسان لصارت هي كلُّها من جنس الإنسان ولما كان هُناك نبات ولا حيوان ولا غيرهما ولما وجد الإنسان ما يأكله ولا ما يلبسه بل لما وُجِدَ الإنسان أصلاً.. لأنَّه حينئذٍ لا ينفكّ إمَّا أن يأكل الإنسان بعضه بعضاً أو يأكل التُّراب وفي كلِّ الأحوال هو ميِّت لا محالة فيفنى جنسه تبعاً لذلك. وحينها أيضاً كان سيُكذِّب القرآن الذي زادت آياته الكونيَّة عن آياته الشَّرعيَّة الفقهيَّة والتي تقصُّ علينا إنعام الله علينا بسائر المخلوقات من نباتٍ وحيوانٍ وطيرٍ وكائناتٍ في البرِّ والبحر والجوّ ولتساءل الإنسان حينها أين ما يُحدِّثنا القرآن عنه من نباتٍ وحيوان؟ فضلاً عن ذكر القرآن لأقوامٍ قبلنا تمَّ تدميرهم لعدم شكرهم تلك النِّعم والجنَّات والزُّروع.. أيضاً لو كان هُناك مخلوقات ولو ذرَّة واحدة لنقل مثلاً نظير الهيدروجين أنَّها ليست من صُنع الله بل من صُنع إلهٍ آخر خلق ما يُشبه الهيدروجين ليكون هذا الشَّبيه هو بداية ووحدة بنائيَّة لمخلوقاتٍ مُغايرةٍ لخلق الله لو حدث هذا لكان هذا معناه أنَّ الله قد سمح لإلهٍ غيره أن يُدخل في كونه ومُلكه ما ليس من خلقه وهذا قدح في وحدانيَّته إذ كيف يكون هو الواحد ويسمح على افتراض وجوده بإدخال مخلوقات جديدة تقدح في حُكمه وسبق علمه بما يحتاج إليه خلقه الدَّنيء منهم والعظيم.. الصَّغير منهم والكبير! ولكان هذا معناه أنَّ ذلك الإله المزعوم هو أقوى من الله لأنَّه لم يعترض على إدخال هذا الدَّخيل إلى خلقه ولو ذرَّة واحدة وما دونها تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً إذ أنَّ نظام الكون مُنذ خُلِقَ لهو خير شاهدٍ على كون الله إلهاً واحداً لا شريك له في الملك ولا نِدَّ ولا نظير ولا شبيه له لا في صفاته ولا في أفعاله سُبحانه. لأنَّ الكون يسير بنظام دون خلل مُنذُ خُلِقَ والأرض بمن عليها كلٌّ يقوم بما كُلِّف به مُنذُ خلقه الله دون زيادة أو نقصان فمنها ما هو مُسخَّرٌ لنا ومُذلَّل لنا كالأنعام والبقر والغنم وما شابه وكالطُّيور المنزليَّة ومنها ما لا قدرة لنا عليه كالوحوش والسِّباع ومنها ما أُمِرْنا بقتله لعظيم خطره وضرره بالإنسان ومنها ما نُهينا عن قتله لفضله وفوائده.

والمتأمِّل في عالم النَّمل مثلاً ليجد العجب العُجاب في نظام حياته وتدبير أموره ومملكته العظيمة تحت الأرض فهو أمَّة نموذجيَّة في كلِّ شيء لا يمكن بحال أن تكون قد جاءت أجداد النَّمل الأولى من إلهٍ آخر وضعها في أرضنا ثمَّ تركها إذ أنَّ هذا يعني أشياء:

أوَّلها: أنَّ هذا الإله لا يوجد لديه مكان يضع فيه تلك الحشرات فجاء بها إلى أرضٍ مِنْ خلق إلهٍ آخر وهذا قدحٌ لا شكَّ فيه في ألوهيَّة ذلك الإله الذي لا يوجد لديه قدرة على خلق أرض كأرضنا رغم بساطتها وحقارتها على الله العليِّ القدير.

ثانيها: أنَّ أرضنا كانت بحاجة إلى تدخُّل من هذا الإله الثَّاني لإصلاح ما فيها من نقص وأنَّ إلهنا عجز عن خلق مثلها كعجزه المفترض عن دفع تدخل ذلك الإله الثَّاني وكلاهما ممتنع في حقِّ إلهنا

ثالثها: أنَّه لو كان هذا صحيحاً وأنَّ النَّمل من مخلوقات إلهٍ آخر لكانت اللَّبنة الأولى لتركيب النَّمل من نظائر الهيدروجين مثلاً أو كانت من مُركَّبات أخرى لا نعلمها ولا نظير لها على الأرض فلمَّا امتنع ذلك لأنَّ النَّمل تركيبه أرضي ويعيش على ذرَّات أرضنا ويأكل منها وبتحليله هو من مركَّبات أبسطها الهيدروجين كما في الإنسان وسائر الخلق على الأرض ومنها يثبت أنَّ النَّمل مخلوق ضمن مخلوقات الله العليِّ القدير الواحد الأحد وأنَّ كلَّ ما على الأرض من مخلوقات فهو له وحده منه بدأ وإليه يعود

حين يشاء لأنَّ وحدة المنشأ تعني وحدة المنشئ لذا فالله خلق الخلق ولو تركنا هكذا لما عرفنا أنَّ هُناك للكون إلهاً بل لقد أودع فينا من الصِّفات ما تمكِّننا من سماع الكلام وفهم معناه وتحليل مدلوله وأودع فينا صفات القبول والرَّفض وغرائز الجوع والجنس حتَّى شاء أن يُعرِّفنا بألوهيَّته وربوبيَّته عملت تلك الحواس عملها. فمنَّا من قبلها ومنَّا من حقَّت عليه الضَّلالة بإذنه ولعلمه السَّابق أنَّ هذا حقَّت عليه الضَّلالة وأنَّه لو كان الخلق كلُّهم مطيعين لما كان لتكليف بني آدم معنى ولما كان للجنَّة والنَّار حاجة ولما كان هُناك داعي لتسمية الإنسان بذلك لأنَّه حينها سيكون ملكاً.

ومن هذا المنطلق عرَّفنا الله أنَّه إله الكون وأنَّه الواحد ولا إله معه ودلَّل على ذلك بالعديد من الأدلَّة الحسيَّة والمعنويَّة ومنها ما ذكرنا كانتفاء تدخُّل آلهة معه في حُكمه ومنها أنَّه شهد لنفسه بذلك ومنها عجز غيره عن التَّعريف بنفسه أنَّه إله وأنَّ له خلق كخلق الله يقع خارج مُلك الله ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الرَّعد: ١٦ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ سبأ: ٢٢ ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ النِّساء: ٥٣

ومن حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ، فَرَأَى أَعْلاَهَا مُصَوِّرًا يُصَوِّرُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً، وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً [١].

بل لقد تحدَّاهم الله تعالى بخلق ذُبابة حتَّى ولو اجتمعوا لذلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ الحجّ: ٧٣ ومن حديث أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ عن الله عزَّ وجلَّ قال: ومن أظلم ممَّن خلق خلقاً كخلقي فليخلقوا مثل خلقي ذرَّة أو ذُبابة أو حبَّة [٢]. وفي رواية: ومن أظلم ممَّن خلق كخلقي فليخلقوا بعوضة أو ليخلقوا ذرَّة [٣]. وفي ثالثة: ومن أظلم ممَّن خلق كخلقي فليخلقوا بعوضة وليخلقوا ذرَّة [٤].

فلمَّا كان المُلك كلَّه تابعاً ولما عرَّفك الله الحقُّ أنَّه من خلقه امتنع وجود آلهة أخرى؛ لأنَّ الله هو المحيط ولا يحيط به شيئ لذا لما امتنع وجود آلهةً معه يُشاركونه أو يُشبهونه في الصِّفات والقدرة على الخلق واستحقاق العبادة له كان امتناع وجود النَّظير والشَّبيه من البشر أولى وأولى ومنها يُفهم سفاهة قول فرعون ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ النَّازعات: ٢٤ وقوله ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ القصص: ٣٨ فهو يعني بذلك مدى جهله بمعنى الألوهيَّة والرُّبوبيَّة لأنَّه قد جاء للدُّنيا من أبٍ وأمٍّ وتولَّى المُلك بعد أن لم يكن له مُلْك ولا قُصور ولا نساء ولا مأكل ومشرب، كان له منها جنَّاتٌ وعُيونٌ وزُروعٌ ومقامٌ كريمٌ فكلُّ هذه جاء فرعون ووجدها جاهزة.. إذن فهو دخيل وطارئ وحدث عليها فكيف يستسيغ العقل أنَّه هُو الذي خلقها وأوجدها وقد خرج إلى الدُّنيا ووجدها مخلوقة؟! وإذا كان هو عاجزٌ عن خلق نفسه إلا إذا وُجِدَ هو قبل نفسه وهذا مُحال فكيف نقبل أن يخلق نفسه بعد أن يُوجد هو أصلاً ثمَّ يخلق نباتات وطيوراً وسماءً وأرضاً وُجِدت قبل أن يخلق هو شيئاً! وهذا مُشابه لكلام النَّصارى حين ادَّعوْا أنَّ عيسى هو الله لذا يقول جلَّ وعلا ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ

---

[١] **متَّفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب اللباس والزِّينة، باب: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة ١٣٧٠.

[٢] **صحيح**: رواه أحمد في المسند برقم ٩٠٧١ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

[٣] **صحيح**: رواه أحمد في المسند ٩٨٢٣ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

[٤] **صحيح**: رواه أحمد في المسند ١٠٨٣١ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.



وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ الإسراء: ٤٢، ٤٣ والشَّاهد من الآية أنَّه لو كان معه آلهةً أخرى أي لو افتُرِض وحدث هذا لابتغوا إلى مَنْ له عرش بهذا الاتِّساع ومُلْك بهذه العظمة طريقاً يبتغون مرضاته وهذا من تمام العزَّة أن يكون إلهاً لآلهة على فرض وجودها وهذا مُحال لأنَّ تعدُّد الآلهة مفسدة للنِّظام وهذه سُنَّة فطريَّة يعلمها البشر أنَّ التَّدخُّل في النِّظام يُفسده إن لم يكن مِنْ إله فلمَّا عجزوا عن التَّدخل في نظامه ومُلكه لشدَّة إحكامه ودقَّته ومتانته أي لم يجدوا ما يُعاب فيه ويحتاج إلى تدخُّل وتعديل فاتَّجهوا رغم كونهم آلهة إلى مَنْ له العرش الذي يفتقدون لمثله وهذا في ذاته قدح في ألوهيَّتهم ودليلٌ ظاهرٌ على عجزهم ولو كانوا آلهةً كما يقولون وهذا زعم باطل وممتنع.

وكلمة (ابتغوا) لها تفسيرٌ آخر: أي لحاولوا الوصول إلي الله لنزع مُلكه أو لمحاربته ومن ثمَّ الانتصار عليه وهذا لوا افترضنا إمكان حدوثه. وهو ممتنع. لنشبت حرب بين الآلهة لا تُعني سوى انشغالهم عن الخلق والملك والملكوت ولكان معناه تناثر النُّجوم وزوال السَّماوات ودمار الأرض بما عليها ولكان قدحاً وصفة نقص في ألوهيَّة أيٍّ منهم؛ لأنَّ الذي يحاول أن يسلب مُلْك غيره قهراً هو في نفسه عاجز أن يخلق مُلْكاً بنفسه يكون سيداً ومَلِكاً عليه لذا فلا يمكن أن يكون هؤلاء آلهة لأنَّنا لا نعلم عنهم شيئاً ولا نعلم لهم مُلْكاً ولا نعلم لهم وصفاً.. أيضاً الآية فيها بيان شدَّة عزَّة الله ومنعته فكما بيَّن المعنى الأوَّل أنَّه لو كان هُناك آلهةً لكانوا طالبين رضاه ورحمته لهم وأنَّهم آلهة بإذنه فإنَّ المعنى الثَّاني قد بيَّن أنَّه تحدَّاهم على فرض وجودهم أن يصلوا إليه فهو من العُلُوِّ في المكان والمكانة بما لا يمكن معه بحال أن يُوصل إليه مُطلقاً وحتَّى مَنْ سيدخل الجنَّة برغم كشف الله الحجاب لهم ومن ثمَّ تمكينهم من رُؤيته فهو ليس بمكان يمكن أن يُقاس البعد بينه وبين أهل الجنَّة. فليس معنى رُؤيتهم له أنَّه يُنال ويوصل إليه وإلى ذاته بهذه السُّهولة.. لذا لما كان هو الإله الحقّ تحدَّى تلك الآلهة المزعومة باستحالة الوصول إليه لو كانوا آلهة لهم قُدُرات خارقة وسُرعات عالية لا يفهمها البشر ثمَّ هو نزَّه نفسه عن إمكانيَّة الوصول إليه ولو منهم كما يقولون وهو بهذا التَّحدِّي يكون تحدِّياً للبشر من باب أولى لذا قال ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٠٣ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ١٨ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ الإسراء: ٦٠ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ العنكبوت: ٢٢ ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد: ٣ وهذا معناه منعة بالنِّسبة لإمكان الوصول إليه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة وبالنِّسبة للنَّظر إليه بقدرتنا المحدودة فالرُّؤية منةً مِنْهُ أضفاها سُبحانه وتعالى على أبصارنا كي نراه لا أن نصل إليه فهو لا يختلط بالمخلوقين وليس منهم في شيئ وليسوا منه في شيئ فهو بائنٌ منهم وهم بائنون منه رغم شدَّة قربه منهم بعلمه وأمره وملائكته وكونه هو الباطن فهي صفة عزَّة لا تدركها الأبصار ولا العقول لأنَّه رغم شدَّة قربه لا يُرى ولا يُوصل إليه وهي صفة تعجيز للبشر وغيرهم مُطلقاً كان عندها إمكان الوصول لذاته فوق العرش من الممتنعات ومثال مُشاهَد على ذلك هو رؤيتنا للقمر ليلاً فليس معنى الرُّؤية أنَّنا لو مددنا أيدينا إليه لمسناه أو جذبناه إلينا فالرُّؤية شيئ وإمكان لمسه والوصول إليه شيئ آخر وكما يحتاج الإنسان كي يصل لأقرب نجم إلينا بعد الشَّمس إلى ٧٠ ألف سنة [انظر كم تزيد عن عمر الإنسان من هبوط آدم عليه السَّلام إلى الأرض] فما بالنا بأبعد مجرَّة ورغم ذلك نراها في صفحة السَّماء ولا سبيل لا للمسها باليد ولا الوصول إليها وحتَّى لو وصلنا إليها سيحدث لنا ما لو وصلنا لأيِّ شمس وشمسنا أولى وهو أن نحترق ونتحوَّل إلى رمادٍ في لمح البصر.. لذا لولا أنَّ الله سيكسب أجسامنا وأبصارنا ما من خلاله نتحمَّل رُؤيته دون ضرر لما أمكننا ذلك

والأدلَّة على ذلك كثيرة ﴿.. انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا.. ﴾ الأعراف: ١٤٣ فها هو موسى عليه السَّلام يُصْعق لما رأى الجبل يُدكّ فكيف لو رأى ربَّه؟

عن أبي موسى ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (... حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ[1].

فالله الله في عزَّة الله.. سُبحان من أعجز الآلهة على فرض وجودهم.. وسُبحان من خلق لنا عقولاً نتفكَّر بها في مخلوقاته لنُثْبِت وحدانيَّته ونُبطل تعدُّد الآلهة فيبطل إشراك غير الله في العبادة.

عن ا بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الزمر: ٦٧ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر يمجِّد الرَّب نفسه أنا الجبَّار أنا المتكبِّر أنا الملِك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتَّى قُلنا ليخرَّنَّ به[2]. فها قد بان من صفة عزَّته براهين وبراهين على وحدانيَّته وألوهيَّته وأحقيَّته بالعبادة واتِّصافه بكلِّ صفات الكمال والجلال والجمال

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

ممَّا سبق يتبيَّن أنَّ الله واحدٌ لا شريك له كما أنَّه لا نِدَّ له ولا مُكْره له على فعل شيئ لا يُريده فهو خالق الحوادث وهو مُقدِّرها ومُدبِّرها ومُغيِّرها في أيِّ وقتٍ بأيِّ كيف شاء.

وهذا علَّمنا إيَّاه رسُولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت من حديث أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ، فَلْيَعْزِمِ الْمَسْئَلَةَ وَلاَ يَقُولَنَّ: اللّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي فَإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ[3]. وفي رواية أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمَ الْمَسْئَلَةَ، فَإِنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ [4]. وهذا ظاهر في القرآن ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ الأنعام: ١٤٩ ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النَّحل: ٩

﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ الرَّعد: ٣١ ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ الرَّعد: ٣٩

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ يس: ٦٦، ٦٧

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ الزُّخرف: ٦٠

---

[1] **صحيح**: رواه مُسلم، كتاب الإيمان، باب: باب في قوله عليه السَّلام « إنَّ الله لا ينام ». وفي قوله « حجابه النُّور لو كشفه لأحرق سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ٤٦٣.

[2] **صحيح**: رواه أحمد في المسند واللفظ له ٥٤١٤، وابن حبَّان في صحيحه ٧٣٢٧ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط.

[3] **متَّفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: العزم بالدُّعاء ولا يقل إن شئت ١٧١٥.

[4] **متَّفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب: العزم بالدُّعاء ولا يقل إن شئت ١٧١٦.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ محمَّد: ٣٠

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ الشُّورى: ١٢

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ الرَّعد: ٢٧

ومشيئة الإنسان في الدنيا كلها بقدر الله وتبع لمشيئته سبحانه إذ لا يشاء أحد ما لا يريده الله كما لا يستطيع أحد منع ما يريده الله لقوله تعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ الإنسان: ٣٠ ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ التَّكوير: ٢٩ إذ كلُّ الحوادث والإرادات إنَّما هي تحدث بعلمه ووفق مُراده الكونيّ القدري والكلام في هذا يطول وينأى بنا عن موضوع العزَّة.. نخلص من ذلك: أنَّ كون الله لا مُكْره له على فعل شيئ فإنَّ ذلك لتمام عزَّته وقُدرته وأنَّه لا سُلطان لأحد فوق سُلطانه ولا أمر لأحدٍ فوق أمره. والله أعلم.

وكلُّ أنواع عزَّة البشر مصدرها الله العزيز، فالعزيز بماله عزيز بما يملك من مال الله فالمال كلَّه من الله والعزيز بجاهه وسُلطانه فإن الذي ملَّكه وسلَّطه هو الله والعزيز بنَسَبِه فإن الذي خلق له من يعتزّ بهم هو الله والعزيز بأولاده كذلك لأنَّهم هبة من الله والعزيز بقُوَّته فإن الذي منحه إيَّاها هو الله ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.. ﴾ فاطر: ١٠

لذا فإنَّ العزَّة الدُّنيويَّة المكتسبة هي رزق يرزق الله به من يشاء وهذا من تجلِّيات صفاته في الحياة الدُّنيا لينظر كيف يتصرَّف النَّاس بجُزْءٍ من صفات الله لو كانوا يريدون أن يكونوا آلهة.. ها قد أعطاهم المال فبخلوا وأمسكوا خشية الإنفاق.. وها قد أعطاهم القوَّة فظلموا وبطشوا واستعلوا على النَّاس وقالوا من أشدُّ منَّا قوَّة فاستعملوها في الكسب الحرام وفي قطع الطَّريق وقتل النَّاس ونشر الفساد.. وها قد أعطاهم السُّلطة ففعلوا كذلك ها هم قد أُعْطُوا نعماً جمَّة بتجلِّيات صفة واحدة وهي صفة العزَّة فكانت النَّتيجة ما ترونه في الواقع لا ما نكتب ونحكي عنه.. فأثبت واقع الإنسان على الأرض أنَّه لا يملك أن يُنازع الله في مُلكه ولا أن يتحلَّى ويتخلَّق بأخلاق الله وكرم الله وعفو الله وحلمه وجوده وبذله وإحسانه.

وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها

الله من عزَّته واستغنائه عن النَّاس أعطاهم كلَّ شيئ وزيادة على ذلك أعطاهم ما يهتدون به ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه: ٥٠ فلقد أخبر عن نفسه أنَّه المِلِك العزيز الكريم لكن كرم الله ليس ككرم البشر فالله قد أعطى بلا حدود فتفاوت النَّاس في استقبال الهدايا الإلهيَّة والمنح الرَّبانيَّة تفاوتهم في استعمالها والتَّصرُّف فيها على تنوُّعها. فبعضهم شكر النِّعمة ورعاها حقَّ رعايتها والأغلب الأعمّ اعتقد أنَّه نال العطايا والنِّعم عن استحقاق لفرط ذكائه أو جماله أو حسبه ونسبه.. ونسي من كان هذا حاله استغناء الله عنه ابتداءً وكونه هو المهدَى إليه فهو ليس الأحسن على الإطلاق بل هو المحتاج وهو المفتقر إلى من أهدى إليه وهو المستحق عليه شكر من تفضَّل عليه بتلك النِّعم خاصَّة وأنَّ ما يُهدَى إليه ليس كعطايا البشر لها أغراض دنيويَّة أو محبَّة زائلة يشوبها النِّفاق والرِّياء فضلاً عن لحظيَّتها.. فهدايا الدُّنيا من البشر بعضهم لبعض لها مُناسباتها وتنتهي وفي غالبيَّتها لا يُستفاد بها بل تُوضع فقط للزِّينة بعكس من يهدي إليك كلَّ لحظة ذرَّات من الأكسجين النَّقي ويهدي إليك في أي وقت تُحبّ قبول الهديَّة طعاماً شهيًّا لا نقدر على حصر أنواعه وأصنافه في وريقاتنا هذه. وأهدى إليك ماءً عذباً نزل إليك هديَّة

من سماء هي آية من آياته وهي في ذاتها هديَّة وفي تمكينك من مُشاهدتها والتَّمتُّع بها ببصرك الذي هو هديَّة هو عين الهديَّة.. نعم أن تُهدَى بهديَّة تُشاهد بها ما لا حصر له من الهدايا وتُهدَى سمعاً هو هديَّة تسمع بها ما لا حصر له من الهدايا المسموعة التي تبهج النَّفس وتُريح القلب كالقرآن مثلاً.. وأهدى إليك قلباً نابضاً لا يكلُّ ولا يملُّ ويجري فيه هديَّة حمراء يتغيَّر لونها على مدار اليوم من الأحمر إلى الأزرق لتهدي إليك خلال هذه الرِّحلات الدَّاخليَّة ملايين الهدايا التي يحتاجها جسمك من هرمونات وبروتينات وأكسجين وسُكَّريَّات وفيتامينات والمجموعة في كلمتي غذاء ودواء فهما هديَّتان يطويان تحتهما ملايين الهدايا الدَّقيقة.. ثمَّ هو قد أهدى إليك كُبرى الهدايا وأجملها وأعظمها وأغلاها ألا وهي المخُّ الذي كلُّ خليَّة عصبيَّة فيه هديَّة يأتيها رزقها رغداً من كلِّ مكان من باقة من أجمل الهدايا من الدَّم أو هدايا الدَّم الحمراء لتعمل فكرك في معنى الهديَّة وتستعمل مُخّك وذكاءك وما بسائر أجزاء الدِّماغ من هدايا داخليَّة، كلٌّ منها له فوائد كلٌّ منها هديَّة يتبعها هديَّة وهدايا.. فمثلا أن تقبل هديَّة الطَّعام فتقوم الهديَّة المعديَّة الدَّاخليَّة بهضمه وتوزيعه على سائر أجزاء الجسم بعد توظيف عدَّة هدايا ثمينة كالقلب والرِّئة والطُّحال والكبد والبنكرياس والرِّئتين.. الخ فيقبل جسمك الذي هو في مجموعه هديَّة كبيرة أو عُلبة مليئة بالهدايا ما يحتاج إليه من هدايا والزَّائد عن حاجته يتمُّ تصريفه وإهداء الغير به كالبول والبراز وما إلى ذلك فهذه يُهدَى بها مخلوقات أقلَّ في الدَّرجة وإن كانت هدايا في ذاتها لأنَّها تستعمل وتقبل هداياك لتُخْرج لك بدلاً منها هدايا أجمل فتقابل جميلك بأحسن منه فالنَّبات يأخذ برازك بعد أن تحلله هدايا بكتيريَّة ويُخرج لك هديَّة التَّنفُّس (الأكسجين).. والشَّمسُ تبعث لك بأشعتها لتأخذ هديَّتك البوليَّة وتُبخِّرُها وتُنقِّيها في الجوِّ لتعود إليك ماءً زُلالاً أو تقوم هديَّة الأرض بامتصاصها ويتمُّ تحليلها بهدايا التُّربة الدَّاخليَّة.. أمَّا ما قبِلَه جسمك من هدايا ينتهي خطّ سيره إلى المخِّ ليقوم بتوزيع الهدايا على سائر الأعضاء فيبعث للعين مثلاً ما يُغذِّيها ويُعينُها على استقبال الهدايا المنظورة ثمَّ تستقبل العين ما تقبله وتبعث للمخِّ أنيِّ قد جاءني من الهدايا كذا وكذا فيقوم المخُّ بقبول الهدايا وإعادة برمجتها على الشَّكل الذي يُمكِّن الإنسان من التَّمتُّع بالهديَّة على وجهها الصَّحيح في أجزاءٍ وكسورٍ من الملايين من الثَّانية لا يُدركها الإنسان ولا طاقة له بذلك وقس على هذا سائر النِّعم والعطايا الإلهيِّة الملكيَّة فإذا كان كلُّ هذا يحدث لك لحظيًّا وفي النَّوم واليقظة.. أجهزة تعمل وهدايا تروح وتجيء.. والمهدِي إليك كلَّ شيئ لم يطلب منك فاتورة الحساب آخر كلَّ شهر فلا هو حاسبك على الشَّمس وأشعتها ولا على القمر وضوئه ولا على النُّجوم وهدايتها لك في ظُلمات البرِّ والبحر ولا على الطَّعام والشَّراب ولا حاسبك على إنبات الزَّرع ورعايته ولا على هضمه وامتصاصه ولا على توظيفه في الجسم بل وهبك كلَّ هذا فضلاً من عنده دونما استحقاق منك ولا مُكْره له على فعل ذلك فهو خلقك ابتداءً مُستغنٍ عنك ووهبك ما وهب بفضله ورحمته.. أفلا يستحقُّ بعد ذلك كلّه أن تُشمِّر عن ساعد الجدِّ في ردِّ الجميل وشكر الهديَّة والاعتراف بالفضل العظيم لمن أهداك إيَّاها؟ وسُبْحان الله ليت الأمر ينتهي عند هذا الحدِّ أن يتركك تشكره كيفما شئت، وتُقِرُّ له بالجميل والإحسان والفضل.. لا بل أرسل إليك هديَّة من الملائكة هي جبريل عليه السَّلام بهديَّة هي القرآن على هديَّة من بني آدم هو سيِّدهم أجمعين ولا فخر مُحمَّد بن عبد الله ﷺ ليعلِّمك كيف تشكر وكيف تقابل الإحسان بالإحسان. فلو أنَّ مَلِكاً ما في الدُّنيا قد منحك عدَّة هدايا وعطايا من الذَّهب والفضة وأعطاك راتباً كلَّ شهر كمنحةٍ منه وفضل عندئذٍ ستتمنَّى رُؤيته لتشكره وتنحني له وتسجد له سجدة الشُّكر والعِرفان على جميل صُنعه ومعروفه دون انتظار الجزاء، هب أنَّ الملك أعلن أنَّه من يريد رُؤيته ليشكره ويُجالسه في حضرته وبلاطه عليه أن يتخطَّى هذا الاختبارات وهي كذا وكذا.. على تنوّع الأسئلة العقليَّة التي تحتاج للعقل والأسئلة الشَّفويَّة التي تحتاج

اللِّسان وتلك التي تحتاج للعمل بالبدن كأن تدخل في متاهةٍ ويُطلب منك الخروج منها في وقتٍ مُعيَّن أو تعبر عدَّة حواجز مُحاطة بالأخطار. والفائز في النِّهاية سيحظى برؤية الملك ليس هذا فحسب بل سيزوِّجه الملك فتاة من أجمل النِّساء إمعاناً منه في الفضل والكرم. فهل بعدها سيتخلَّف عن تلك المسابقة إلا شقيٌّ أو جاحد؟ أما وقد آن الأوان لنفهم رسالة الله إلينا من خلال خلقه للبشر وإرسال الرُّسل.. أما آن الأوان أن تخشع قلوبنا لذكر الله بالحمد والشُّكر ابتداءً على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة.. أما آن الأوان لكي نُسبِّح الله ونذكره ليل نهار كما يرزقنا ليل نهار ويهدي إلينا في كلِّ وقت بنعمٍ عظيمة كما ذكرنا تستحقّ ونُكرِّر تستحقّ دوام الشُّكر لا مُجرَّد الشُّكر ودوام الإقرار بالفضل لا مُجرَّد الإقرار بالفضل..؟ ألا يستحقّ أن نُسابق للخوض في تلك المسابقة والاختبارات وحلّ الأسئلة التي هي طاعة الله ورسوله ﷺ وتجاوز الابتلاءات والامتحانات بقلبٍ راضٍ مُطمئنٍ كي نفوز بلقائه ومن ثمَّ رُؤية وجههِ الكريم في غير ضراءَ مُضرَّة ولا فتنةٍ مُضلَّة؟ أفلا نُشمِّر عن ساعد الجدّ للفوز بالجنَّة وبما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خطر على قلب بشر؟ أفلا نشوِّقُ أنفسنا بذلك؟ مَنْ مِنَّا لا يُريد أن يحظى بالحور العين وما أدراكم ما الحور العين..؟ وأنهارٌ من لبنٍ وماءٍ وعسلٍ مُصفىً وخمرٍ لذَّةٍ للشَّاربين وفواكه وعيشةٍ هنيَّة لا موت بعدها ولا همٌّ ولا غمٌّ بل كلُّها سلام!

ألا إنَّ الله قد خلقنا وقد أهدانا هدايا قيِّمة أوَّلها أن عرَّفنا أنَّه خالقنا ثمَّ هو أهدانا بنعم جسميَّة وحسيَّة ومعنويَّة لا تُعدُّ ولا تُحصى وأهدى إلينا رسولاً نبيًّا وقرآناً عربيًّا وميعاداً هنيًّا لمن شمَّر له واستعدَّ له واهتزَّ وبشَّ لقوله ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الحديد: ٢١ فالشُّكر لا يمكن أن تُوقفه عند حدٍّ مُعيَّن لأنَّ الله مُستحقٌ له على الدَّوام ولن نُوافيه حقَّه بما أنعم به علينا مهما فعلنا لقوله ﷺ من حديث محمَّد بن أبي عميرة رضي الله عنه وكان من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قال: لو أنَّ عبداً خرَّ على وجهه مِنْ يوم وُلِد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله لحقَّره ذلك اليوم ولودَّ أنَّه يُردُّ إلى الدُّنيا كيما يزداد من الأجر والثَّواب[1]. وفي رواية الطَّبراني من حديث عتبة بن عبد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: لو أنَّ رجلاً يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلِد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله عزَّ وجلَّ لحقَّره يوم القيامة[2]. أي لحقَّر عمله وطاعته طول عمره من شدَّة ما يرى في ذلك اليوم من أهوال. فالله لا يملُّ أبداً حتَّى يملَّ العبد فخير العمل أدومه وإن قلَّ فمن حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ يَقُولُ: خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّتْ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى صَلاَةً دَاوَمَ عَلَيْهَا[3]. فاشكر ربَّك ولو شُكراً يسيراً ولكن داوم عليه هذا خير الهَدْي والله أعلم.

---

[1] **صحيح**: رواه أحمد في المسند ١٧٦٨٧ وصحَّحه شعيب الأرنؤوط وصحَّحه الألباني في صحيح التَّرغيب ٣٥٩٧.

[2] **صحيح**: رواه الطَّبراني وصحَّحه الألباني في الصَّحيحة ٤٤٦ وقال هذا إسناد جيِّد وحسَّنه في صحيح الجامع ٥٢٤٩.

[3] **متَّفق عليه**: اللؤلؤ والمرجان، كتاب الصِّيام، باب: صيام النَّبيِّ ﷺ في غير رمضان... ٧١٢.

علمت نفس..!

تقدَّم ابن الطِّين حتَّى وصل إلى اختراع الكمبيوتر ذلك الجهاز الذي وفَّر كثير من الوقت والجهد وأنتج كثيراً من التَّصاميم والمخترعات بدقَّة بالغة وقفز بالصِّناعة قفزة هائلة.. لكن ثمَّة لفتة ينبغي ألا تفوتنا ونحن نتحدَّث عن خلق الله وهي أن الإنسان عندما يأمر الكمبيوتر أن يُنبِّه آلة بعينها لصنع شيء ما أو نسخ رسالة ما أو طباعة شيء فإنَّه مع هذا الأمر يحدِّد له عدد النُّسَخ فيقول: واحد أو ١٠٠٠ ويكون الأمران لدى الإنسان سواء فأمره بطباعة مليون نسخة ليس بأشق عليه من طلب نسخة واحدة والعكس فما بالنا بالله وله المثل الأعلى حين يقول ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ لقمان: ٢٨

وقوله عن (جنس الإنسان يوم القيامة) ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ التَّكوير: ١٤

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ الانفطار: ٥ وهي أبلغ كناية عن جنس البشر جميعا فهم في نوعهم أنفس وفيما بينهم كثير ولكنَّهم عند الله نفس واحدة.. وتأمَّل ذلك المطبخ العجيب الذي يتمُّ إنضاج الطعام فيه بواسطة فرن واحد وبماءٍ واحدٍ ينزل دفعةً واحدة.. انظر لتلك النَّباتات التي فيها مُكوِّنات الطعام ومقاديره منذ كانت مكتوبة ومخزَّنة في بذرته وحتَّى تنضج ثماره بواسطة فرن واحد هو الشَّمس ينضج الجميع ويعطي الضَّوء والحرارة للجميع دون مُقابل ودون انتظار للفاتورة.. كذلك الماء يدخل ليذيب تلك المقادير بنفس الطريقة وبنظام محكم بديع وهو في أصله من سماء واحدة ونزل في وقتٍ واحدٍ لا يمتنع من أحد ولا يحابي أحداً وأيضاً دون مُقابل.. وبعدما تتأمَّل انظر إلى صنعتك ونتيجة طهيك وانظر إلى صنعة الله وما تمَّ طبخه في النَّبات والحيوان على حدٍ سواء.. وانظر كم تكلَّفت صنعة الله وكم تكلَّفت وجبتك التي طبختها؟! فإن كنت لا تصنع الشَّيء إلا بيديك أو بأمرٍ للجهاز المبرمج ليشغِّل الآلة فتصنع ما تريد فانظر إلى آثار رحمة الله وثماره وحبوبه ولحم طيره وحيوانه.. أأنت أمرت هذه الآلات أن تصنع ما تريد أنت.. أم أنَّها تصنع ما تراه سواء عليها أأحبَّت ذلك أم لا؟ وانظر إلى ماكيناتك وآلاتك وانظر إلى صنعة الله وآلاته بل آلائه ثمَّ ارجع إلى نفسك فسألها هل تستطيع صنع آلة تصنع اللَّحم بعروقه وبروتينه؟ أم هل تستطيع صنع ثمار الفاكهة؟ أم هل تستطيع صنع دودة أو حشرة تنتج لك عسلاً أو حريراً أو خلافه؟ بل انظر إلى ثمرة كالبرتقال أو البطيخ وتأمَّل في غلافها كيف خرجت من آلتها جاهزة للأكل ومغلفة لكن تأمَّل في غلافها وفي أغلفة مصنوعاتك ولاحظ الفرق فيكفي أنَّ الآلة التي صنعت الثَّمرة وغلافها وبذورها واحدة أمَّا أنت تحتاج لآلة لصنع المنتج وأخرى لتغليفه وثالثة للتعبئة ورابعة للصق ختم أو شعار المصنع عليه وماكينات لصنع قطع الغيار.. أمَّا في صنعة الله فالماكينة واحدة وللعجب أنَّك لا ترى أجزاءها بعينيك المباشرة تلك الماكينات هي البلاستيدات الخضراء التي يوجد منها خمسمائة ألف بلاستيدة في المليمتر[1] ولا تراها بعينيك آه لو رأيت روعة تصميمها تحت المجاهر الحديثة لذهلت من دقَّة الصَّنعة والمختومة على مستواها الذَّرِّي بخاتم المِلك.. نعم تلك هي صنعة الله.. الأعجب من ذلك أنَّ ذلك النَّبات يستطيع أن يُكوِّن بذوراً يحافظ بها على نسله جيلاً بعد جيل فهل تستطيع ماكيناتك صنع شيء يعيد نفسه جيلاً تلو آخر! وعليه فإنَّ أمر الله لإنبات نبات كأمره لإنبات كلِّ نباتات الأرض إلى قيام السَّاعة لأنَّه أودع فيها سرَّ قدرته وتفرُّده بالخلق والأمر ومثله الإنسان فهل من مُعتبر.

---

[1] المعجزة الخضراء التَّمثيل الضَّوئي ص١٦٤ هارون يحي.





الطَّبيعة تعترف.. أنا لستُ إلهاً!

قيل إنَّه لإخراج كتاب ما يحتاج لقلم واحد إن كان مخطوطاً، وأقلامٍ عديدة بعدد حروفه إن كان مطبوعاً كتلك الحروف المعدنيَّة التي كانت تُستعمل في الطباعة حتَّى فترة وجيزة.. كما قيل إنَّه لو كان هُناك ثمَّة طريقة لكتابة سُورة يس في لفظ (يس) فإن تلك الطَّريقة تستلزم حروفاً معدنيَّة غاية في الدِّقَّة حتَّى تطبع ذلك اللَّفظ. فالكون كذلك يُشبه الكتاب المطبوع ففي كلِّ مخلوقٍ منه مطابع عديدة لا حصر لها وبعدد أجزاء الكون تكمن داخل المظهر الخارجيّ للكون من نبات وحيوان وتراب وماء وغيرهم. وكلُّ حرف في أيِّ كتابٍ كان يُظهر نفسه بمقدار حرف ويدلُّ على وجوده بصورةٍ مُعيَّنةٍ إلا أنَّه يُعرِّف كاتبه بعشر كلمات، ويدلُّ عليه بجوانب عديدة فيقول مثلاً: إنَّ كاتبي خطّه جميل.. وإنَّ قلمه أحمر، وإنَّه كذا وكذا..) ومثل ذلك كلُّ حرفٍ من كتاب العالَم الكبير هذا يدلُّ على ذاته بقدر جرمه (مادَّته) ويُظهر نفسه بمقدار صُورته إلا أنَّه يُعرِّف أسماء البارئ المصوِّر سُبحانه بمقدار قصيدة ويُظهِر تلك الأسماء الحسنى ويُشير إليها . بعدد أنواعه . شاهدا على مُسمَّاه [٢].ونُوضِّح هذا الكلام فنقول: إنَّ هذا الكلام ينطبقُ بجلاءٍ واضحٍ إذا طبَّقناه مثلاً على النَّبات إذ أنَّ كلَّ خليَّة تحتوي نواة تتركَّز في مادَّتها الوراثيَّة خريطة النَّبات في شكل حروف كيميائيَّة مُشفَّرة (الجينات أو الشَّفرة الوراثيَّة) هي التي يتمُّ قراءتها وطباعتها ليخرج لنا النَّبات على صُورته وليس في صُورة نباتٍ آخر أو حيوان ونستفيد من ذلك بأنَّه لو اعتبرنا النَّبات في مجموعه حرفاً واحداً في كتاب المملكة النَّباتيَّة فحينئذٍ نقول بأنَّه كحرف يدلُّ على نفسه كنبات (س) الذي له شكل وجرم محدَّد لكنَّه مع سائر نباتات جنسه مثلاً أو مع عدَّة أصناف أخرى في حديقة مُزهرة فإنَّما تدلُّ على أنَّ مُصمِّمها واحدٌ وبارءها واحد لتشابه كلِّ واحدةٍ منها في وجود الخضرة والألوان والسِّيقان فكلُّ نبات إذن حرفٌ مستقل إذا وُضِع بجوار غيره صارت كلمة أو كلمات تصف بارءها بأنَّ قلمه الذي كتبها به يتركب من كروموسومات وجينات وراثيَّة مُشفَّرة تُرجمت وطبعت إلى ما هي عليه. وذلك لأنَّ طريقة عمل تلك المكائن الطَّابعة في كلِّ نبات وفي كلِّ صنف واحدة لا تختلف باختلاف النَّبات. إذن فهي خرجت من مصنعٍ واحد.. وبهذا الكلام نكون قد بعدنا عن تأليه الطَّبيعة وجعلها هي الموجدة للخلائق كما يعتقد من لا عقل له..لأنَّ مُكوِّنات الطَّبيعة الماء والتُّراب والهواء هي جُزء لا يتجزَّأ من تركيب تلك الأحرف وهذه النَّباتات فلابدَّ إذن أن تكون الطَّبيعة حال خلقها للمادَّة شيئاً آخر قبل المادَّة وينبغي حينئذٍ أن تكون مُنفصلة عنها، لا أن تكون هي نفسها المادَّة وهي نفسها المصنوع.. فالطَّبيعة تتبدَّل في كلِّ وقت ويظهر فيها الحياة والموت أمَّا الإله لا يتبدَّل ولا يموت ولا يتحوَّل كما أنَّه لا يتجزَّأ ولا يتركَّب من أجزاء كالطَّبيعة، وإلا لكان الإله هو المخلوق وحينئذٍ لمن سيكون إلهاً؟ ألنفسه! إذن فهو ليس إله لأنَّه عجز عن خلق شيءٍ منفصل عن نفسه يكون هو إلهاً له، فلمَّا كانت الطَّبيعة كذلك عُلم أنَّها عاجزة عن خلق نفسها وعن خلق غيرها فهي حتَّى تخلق نفسها لابدَّ أن تُوجد قبل نفسها وهذا محال ولو وُجدت قبل نفسها فمن الذي أوجدها؟ ولكن دورها في الحقيقة أنَّه منها فقط تُجمع الأجزاء ليُخلق غيرها ومنها عُلم فساد القول والمعتقد بألوهيَّة الطَّبيعة وأنَّه يجب وجود قوَّة خفيَّة وراء الطَّبيعة ووراء المادَّة هي التي تُسخِّر تلك الطَّبيعة لتكون خدماً بأجزائها المختلفة لسائر المكائن النَّباتيَّة التي تطبع من تلك الأجزاء حروفاً وكلمات تُشير إلى نفسها كنباتات، وإلى صانعها بقدر جرمها فإن كان نباتاً مجهريًّا دلَّ على مدى لُطف صانعه وإن كانت شجرة عملاقة دلت على عظمة وقدرة

---

[٢] التَّوحيد الحقيقي لبديع الزَّمان النَّورسي بشيء ص ٦٩ . ٧١ بشيء من التَّصرُّف.





صانعها وإن كانت شجرة مُعمِّرة دلَّت على قِدَم صانعها وهكذا. لأنَّ القائلين بألوهيَّة الطَّبيعة جعلوها وحدة قياس لوجود كلِّ شيء ومعلوم أنَّ وحدة قياس الشَّيء يجب أن تكون ثابتة لا تتغيَّر بتغيُّر الظُّروف والأزمان فإذا عُلم أنَّ الطَّبيعة ليست ثابتة وفي تغيُّر مُستمر بزيادةٍ أو نقصانٍ وتحوُّل وتغيُّر في الشَّكل والكيف والكمِّ عُلم أنَّها لا تصلح وحدة قياس فضلاً عن كونها ترتقي لمنزلة الإله.. ولما كانت ليست وحدة قياس عُلم ضرورة كونها جُزءًا لا يتجزَّأ من المقاس وهذا مُشاهَد فأنت إن أردتَّ أن تحسب وزن شيءٍ ما فهو وزنٌ نسبيٌ يرتبط بجاذبيَّة الأرض وكتلة ذلك الشَّيء، وعندئذٍ تحتاج إلى شيءٍ ثابتٍ تزن به هذا الشَّيء فلتبحث إذن في الطَّبيعة عن شيءٍ ثابت فإن قلت الحديد فهو ليس بثابت بالمرَّة وإن بدا ظاهريًّا في صلابته أنَّه ثابت.. وإن قلت الجاذبيَّة فهي مُتغيِّرة ووزن الشَّيء عند خطِّ الاستواء يختلف عن وزنه عند القطبين بما يزيد عن الكيلو جرام بسبب الطَّرد المركزيّ وإن قلت نحدِّد ميزاناً ثابتاً قلنا لن تجده لأنَّ الميزان يتركَّب من ذرَّات في حركة دائبة لا تراها فهي يزيد في وزنها ولو كسر من الإلكترون أو ينقص منها كذلك فضلاً عن تفاعل سطحه مع الوسط فضلاً عن كون الميزان نفسه لا يتحدَّد وزنه للقياس إلا بمعرفة مقدار جذب الأرض له فلمَّا كانت الأخيرة مُتغيِّرة بحسب الموقع من خطِّ الاستواء عُلم استحالة وجود ميزان قياس مطلق وعلى هذا فقس اعتبارك الميزان بالنِّسبة لأيِّ مُتغيِّرٍ على الأرض. ثمَّ إنَّ الميزان الذي تزن به مُركَّب كلُّه من أجزاء من نفس الطَّبيعة فكيف تكون الطَّبيعة هي المقياس وهي المقاس في الوقت ذاته؟!

مثال آخر: تحديد سُرعة جسم ما يتحرَّك.. لا تجد وحدة قياس ثابتة يُنسب إليها مقدار واتِّجاه حركة هذا الجسم؛ لأنَّك تقيس حركته بالنِّسبة لسيارةٍ ثابتةٍ أو مُتحرِّكة بجوارك والسَّيارة أصلاً ليست ثابتة بل هي مُتحرِّكة مع الأرض بنفس سُرعتها.. تقول نأخذ الشَّمس كمقياس، نقول والشَّمس تتحرَّك حول المجرَّة وتتحرَّك نحو النَّسر الواقع في الوقت ذاته كما أنَّ دوران الأرض حول نفسها سيجعل مُهمَّتك مُستحيلة لأنَّك لن تُواجه الشَّمس طوال اليوم بل سيختفي معيار ومقياس سرعتك (الشَّمس) في اللَّيل،والمجرَّة بدورها لها عدَّة حركات حول نفسها وحول مركز المجموعة المحليَّة والتي بدورها تتحرَّك حركات حول نفسها وحول مركزٍ مجهول لعنقود المجرَّات العظيم فضلاً عن كون الأرض تميل عن محورها الإستوائيّ ٢٣,٥ درجة والشَّمس بل والمجموعة الشَّمسية كلَّها تميل عن محور دوران المجرَّة والمجرَّة كذلك فإلى أيِّ شيء ستنسب سرعة واتِّجاه ما تريد قياسه..؟ لابدَّ لك إذن من شيءٍ ثابتٍ لا يتحرَّك مُطلقاً تنسب إليه الحركة الحقيقيَّة وإلا لكانت حركة ظاهريَّة فقط.. مع العلم بأنَّ كلَّ ما سبق من مُتغيِّرات في الوزن والسُّرعة هو جُزء لا يتجزَّأ من الطَّبيعة لذا وجب التَّسليم بوجود ما وراء الطَّبيعة وعوالم أخرى ثابتة يتحكَّم فيها المطلق الحقيقيّ وهو الله.. أيضاً كلَّ معايير السُّرعة السَّابقة لابدَّ هُناك ما هو أبعد منها وما يحيط بها فلا يمكنك إذن أن يصحّ قياسك إلا إذا وجدتَّ ما لا يحيط به شيء وما لا يوجد ما هو أبعد منه حتَّى تتأكَّد أنَّك لا تسبح في فلك هذا الشَّيء فتتغيَّر قياساتك فضلاً عن كون ذرَّات الطَّبيعة بلا استثناء هي شواهد على خلق الله لها وأنَّها مربوبةٌ له والدَّليل أنَّ كلَّ ذرَّة فيها مختومة بخاتم الملِك وكأنَّ الطَّبيعة تشهد وتعترف بلسان حالها وعجزها عن التَّحكم في نفسها أو في أيِّ جُزء فيها.. أنا لستُ إلهاً.. أنا لستُ إلهاً.



وسبَّحت صبغة الله..!

لو مشيت يا عبد الله تتأمَّل في عجيب صُنع الله في سمائه وأرضه وفي البرِّ والبحر، وأنت مُستشعر أنَّك لست وحدك الذي يعبد الله ويسبِّحه ويُشفق من عذابه، وأنَّ كلَّ ما تراه في الكون وما لا تراه، إن هو إلا مظهر من مظاهر قدرة الله في عالم الشَّهادة، وأنَّ ما في الكون من إبداعٍ هو فقط تجلِّيات أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى.. فترى النَّبات يقول لك دون أن تسمعه: أنا صنعة الله في هذا الشَّكل.. أنا عابدٌ لله في هذا التَّصميم.. ألا ترى روعة تصميمي؟... ألا تتوقَّف أمامي قليلاً لتتأمَّل بديع صنع الخلَّاق العليم؟... انظر كيف جعل الله لوني أخضر حتَّى لا يجهد عينك، ومن ثمَّ يبهج قلبك، وكيف جعلني مُذلَّلاً لك عند بذري وحصدي وطهيي وأكلي وهضمي وإخراجي.. تأمَّل يا من درست الذَّرَّة كيف انتظمت ذرَّات ساقي لتكون خضراء، في حين انتظمت في أوراقي لتتلوَّن بالعديد من الألوان منها الأخضر والأصفر والأحمر أو خليطٍ منهم فتكون مُبرقشة مُزخرفة بإبداع بديع السَّماوات والأرض.. ألا ترى اسم الله (بديع السَّماوات والأرض) ظاهراً جليًّا أمام ناظريك؟.. ألا ترى صفة (الحكمة) في كلِّ شيء في تكويني ظاهرة جليَّة؟.. تأمَّل في ذرَّاتي وفي تركيبي الدَّاخليّ من خلايا ومواد وراثيَّة وهُرمونات وأملاح وسكريَّات تجد اللَّطيف الخبير ظاهراً وباطناً.. تأمَّل في الشَّكل واللَّون تجد (بديع السَّماوات والأرض) تأمَّل في الأوزان والتَّركيب الخارجيّ كما هو ظاهرٌ لك وتناسق الوظائف البيولوجيَّة تجد الظَّاهر الحكيم العليم.. تأمَّل ففي كلِّ جُزء تجد اسماً وصفة لله محاطة في كلِّ مرَّةٍ باسمه القدير وبصفة القدرة بل طلاقة القدرة.

والنَّجم يبعث إليك بضوئه قائلاً لك: كم سبّحتُ حتَّى وصلتُ إليك يا إنسان.. أتدري يا عاص لله كم بيني وبينك.. لقد سبحتُ ملايين السِّنين حتَّى وصلتُ إليك بسرعتي الرَّهيبة البالغة ٣٠٠,٠٠٠ كم / ث وأنت غافلٌ نائم تائه لا تدري لماذا خلقك الله.. ها أنا أسبِّحُ في طريقي إليك قبل أن تولد.. . وقبل أن تُخلق أرضك التي تدبَّ عليها وتعصي الله تحت سمائها . بملايين السِّنين فلمَّا دخلتُ في عينك وأحسَّ بي مخُّك فأبصرتني لم تُسبِّح فصرتُ أنا حيًّا بذكر الله وأنت ميِّتٌ رغم أنف علمائك في الأرض.. لقد جئتك من العُلُوِّ من سماء تعلوها سماوات ألا ترى أن العَلِيَّ هو الذي علَّا مكاني، وهو سُبحانه أعلى وأعلى فهو العَلِيُّ الأعلى القدير ألا ترى الذي بعثني لك بالحقِّ لأخدمك قد أحاط بي وبمجرَّتي وبأكثر من ٤٠٠ ألف مليون مجرَّة هي جُزء صغير من زينة سمائك الدُّنيا فكيف بالسَّابعة... تلك السَّماوات مجتمعة إن هي في سعة الكرسيِّ إلا كحلقةٍ ملقاةٍ (أي لا قيمة لها) في فلاةٍ (صحراء) فكيف بالكرسيِّ!.. هذا الكرسيُّ هو الآخر إن هو في العرش وسعته إلا كنسبة الحلقة في الفلاة فكيف بالعرش!.. ها أنا شُعاع الضَّوء بلغتُ من العمر ملايين السِّنين وأنا أنطلقُ بأقصى سُرعة... والله كان حيًّا قبل خلقي وكان حيًّا لحظة خروجي من مجرَّتي وسيبقى حيًّا لا يموت.. ألا ترى أنِّي لحظة وصوليُ إليك لم تنته حياتي بعد، بل سأخوض معك رحلة حياة أخرى داخل جسمك ثمَّ إلى غيرك بعد موتك كلُّ هذا وأنا أسَبِّح.. ألا ترى أنِّي قد متُّ كشعاع ضوء لكنِّي سأبقى حيًّا أسَبِّح كجزءٍ من ذرَّةٍ فيك أو في غيرك.. كلُّ هذا والله حيٌّ لا يموت.. ألا ترى أنَّه قد اعتراني الحول والتَّغيُّر والله لا يتحوَّل ولا يتغيَّر.. ألا تراني أحيا حياة تلو حياة كلٌّ من جنسٍ مختلفٍ ثمَّ أفنى في النِّهاية والله حيٌّ لا تتغيَّر حياته ولا يتحوَّل من حياةٍ إلى أخرى بل هو حيٌّ على الدَّوام حياة أبديَّة ليست من جنس حياتنا؟.. سُبحانه ليس كمثله شيء.. ألا ترى أنَّني حتَّى أظلَّ حيًّا لابدَّ لي من طاقةٍ تمدُّني بالحركة والله حيٌّ لا يحتاج لذلك.. ألا ترى أن كلَّ ذلك صفات نقصٍ فيَّ والله

مُنزَّهٌ عنها سُبحانه؟.. ألا ترى كم قطعتُ من مسافاتٍ شاسعةٍ لا تستطيع تخيُّلها... وكلُّ هذا في قطعةٍ صغيرةٍ من مُلْك الله.. ماذا تمثِّل زينة السَّماء الدُّنيا في السَّماء الدُّنيا نفسها؟ لا شيء.. ماذا تمثِّل السَّماوات السَّبع في الكرسيِّ.. مُجرَّد حلقة في صحراء... والكرسيُّ في العرش كالحلقة في الصَّحراء.. أتدري كم يبلغ قطر زينة السَّماء الدُّنيا المقدَّر حتَّى الآن؟ لقد قُدِّر بـ٧٠ ألف مليون سنة بسير الضَّوء... حاول أن تتخيَّل سعة المِلْك يا ابن آدم ثمَّ تأمَّل لتعلم من هو الملِك الحقّ وكيف يكون المِلْك؟.. أليست هذه مخلوقات لله... أين الله إذن.؟ ستقول في السَّماء... ها قد اعترفت بل ها أنت الآن فقط قد فهمت معني في السَّماء.. أنَّ الله فوق كلِّ هذا المِلْك العريض.. أنَّه عليٌّ.. أنَّه مُحيطٌ.. أنَّه عظيمٌ... وأيضاً هو قديرٌ وهو (بديع السَّماوات والأرض) انظر للمجرَّات وتأمَّل في أشكالها وألوانها وسرعتها واتِّساعها تعلم روعة إبداعها من الله الخلَّاق العليم... أيُّ إلهٍ هذا الذي نحنُ عنه غافلون.. حيٌّ.. عليٌّ.. سميعٌ.. بصيرٌ.. رغم بُعد ما بيننا وبينه.. الكلُّ في قبضته.. تحت حُكمه.. رهن مشيئته.. أرأيت يا ابن آدم.. إلى أيِّ شيءٍ يقودك التَّفكُّر فيما حولك... إلى النَّتيجة الكبرى والحقيقة العُظمى.. أنَّ أسماء الله وصفاته تحيط بك وتقيم الحجَّة عليك بلسان الحال.. وأنَّها عليك شُهودٌ يوم القيامة... وهي رُسُل بعد رُسُل.. فإذا نظرتَ إلى السَّماء وما فيها وجدتَّ رُسُلاً كثيرة وإذا نظرتَ في الأرض أو في البحر أو في الشَّجر أو الحجر وجدتَّ رُسُلاً لا حصر لها من صفات الله وتجلِّياتها المتمثِّلة في كلِّ ما تراه من إبداع من حولك.. لحظة تأمُّل تقودك إلى الله.. لحظة تفكُّر تقودك حتماً إلى تسبيح الله.. إذ النَّقص فيك لازم.. والكمال فيه لازم... سُبحان الله

قال الشَّاعر

إذا ما رأيتَ الله في الكلِّ فاعلاً = عقلتَ فصيَّرتَ القِباح مِلاحاً

وإن لم تجد إلا مظاهر صُنْعِــــه = جَهِلْتَ فصيَّرتَ المِلاحَ قِباحاً

قال الله:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت: ٣٩ تأمل معي قوله:.﴿.اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ..﴾ أي: تمايلت واضطَّربت وتحرَّكت يمنةً ويسرةً، وعَلَتْ في السَّماء؛ فَرِحَة بطاعة ربِّها مُسبِّحةً له على الدَّوام حتَّى يأتي أجلها بعد أداء وظيفتها المنوطة بها.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " خرج نبيٌّ من الأنبياء بالنَّاس يستسقي فإذا هو بنملةٍ رافعةٌ بعض قوائمها إلى السَّماء فقال: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النَّملة " [1]. فانظر كيف أن مالك الملك لا يغفل عن تدبير ملكه في كل صغير وكبير.

دعك الآن من النَّملة وعجائبها التي لا تنتهي فأنا الآن أودُّ أن أبحر بك في عالم آخر من عوالم الكون.

ستقول: وما هو يا ترى؟ وجوابنا: سأبحر بك في جولةٍ تأمُّليَّةٍ سريعةٍ في مملكة النَّبات وسأتكلَّم بشيءٍ من الإجمال لأنَّ تفاصيل الإعجاز الإلهي في خلق النَّبات بأنواعه وأشكاله المتعدِّدة ليس هذا موضوعنا الآن وإن كان مُهمًّا جداً في ترسيخه إلا أنَّني أخشى الإطالة لكن قبل أن أطوف بك في قلب الملكة صاحبة الجلالة (الخليَّة النَّباتيَّة) لابدَّ وأن تتخيَّل نفسك وقد ارتديت

[1] **صحيح**: رواه الدَّارقطني وصحَّحه الألباني في المشكاة برقم ١٥١٠.



نظارة ميكروسكوبيَّة لها قدرة على تكبير ما لا تراه العين المجرَّدة . ما هو أقل من ٠,٥ ملم . لتراه واضحاً مُجسَّماً بعد أن تُكبِّره لأكثر من نصف مليون مرَّة وهذا هو مُستوى التَّكبير الذي يخوِّل لنا رؤية عضيَّات الخليَّة الدَّاخليَّة بوضوح وهذا كلام أنت تعرفه جيدا.. فنحن الآن سندخل إلى نوع فريد من عالم الشَّهادة.. هو عالم غيب الشَّهادة!

ستقول: سُبحان الله.. كيف يكون ما نشاهده غيباً وما يغيب نشهده؟ هل هذا معقول؟

نعم.. بل يمكننا القول بأنَّه شيء عاديّ جداً لا غرابة ولا عجب فيه البتَّة إذا ما نحن نسبنا الأمر لله خالق الأمر وإلى طلاقة قدرة القادر على كلِّ شيء.. والآن يا عبد الله سنجول سويًّا في العالم الأوَّل (غيب الشَّهادة) تاركين الحديث عن العالم الثَّاني (شهادة الغيب) إلى حين وصولنا بالطواف إلى المجرَّات..

انظر يا عبد الله إلى تلك الورقة الخضراء الجميلة.. لو أنَّنا اجتزأنا منها جُزءاً صغيراً جداً طوله ملم واحد فقط ووضعناه في كفِّك الأيمن وقلنا لك انظر إليها، فإنّك في هذه الحالة إنَّما تنظر إلى عالم الشَّهادة فإذا سألناك: هل تستطيع مهما بلغت حدَّة بصرك أن تصف لنا ممَّا تتكوَّن هذه القطعة وما هي التَّفاصيل الدَّقيقة لهذه المكوِّنات؟

ستقول: بالطَّبع تستحيل الإجابة لأنَّ العين المجرَّدة لا تقوى على ذلك.

ونقول: وهذا هو عالم الغيب لما تُشاهده، وهذا هو معنى غيب الشَّهادة.. أمامنا قطعة صغيرة من ورقة شجر بالكاد نراها لكنَّنا نعجز ونقف مكتوفي الأيدي عند محاولة تخيُّل ما يمكن أن تحويه هذه القطعة من عوالم ومخلوقات تنبض بالحياة والإبداع.

ستتعجَّب: مخلوقات!

ونقول: نعم.. إنَّها دُنيا أخرى.. عالم آخر.. حياة أخرى. والغريب أنَّها موجودة ومحسوسة وتُسمَّى مجتمعة بالنَّبات.. لكنَّنا لا نراها بأعيننا إذ ليس عدم رؤيتنا للشَّيء دليلاً على عدم وجوده وإلا لأنكرنا وجود الرُّوح بحجَّة أنَّنا لا نراها. فماذا لو تمَّ تقطيع هذه القطعة ذات الطُّول واحد ملم إلى ١٠٠٠ قطعة أصغر.. في هذه الحالة لن يرى أي إنسان أيًّا من هذه القطع على حدة أبداً اللَّهم إلا بعد تكبيرها بنظارتك الميكروسكوبيَّة التي افترضنا لبسها مُنذ قليل.. عندئذٍ يكون أمامك ١٠٠٠ مِلكة مُهيمنة على ملايين الوظائف في النَّبات أو بعبارة أخرى أدق ١٠٠٠ خليَّة نباتيَّة حيَّة.. فهل تخيَّلت مدى صغر الخليَّة الحيَّة.. تلك التي تقوم بما فيها من بلاستيداتٍ خضراء بعمليَّة البناء الضَّوئيِّ.. تلك التي تُنتج لنا البروتين.. تلك التي تُنتج لنا الصَّبغات.. تلك التي يتكوَّن فيها الغذاء والكساء والدَّواء والشَّراب.. تقوم بما فيها من عوالم بعمليَّات إعجازيَّة مقارنة بصغر أبعادها ودقَّة مُكوِّناتها.. تأمَّل معي يا عبد الله.. خليَّة أصغر من الملم ١٠٠٠ مرَّة.. خليَّة أصغر من السَّم ١٠ آلاف مرَّة.. لكأنِّي بهذه الخليَّة في بُعدٍ آخر ودُنيا أخرى..! لكن السُّؤال الآن: هل هُناك ما هو أصغر من الخليَّة؟! والإجابة قد لا يُصدِّقها البعض بأنَّ هذه الخليَّة بالنِّسبة لما هو أصغر منها تبدو وكأنَّها مجرَّة عملاقة تَسْبَح فيها النُّجوم..! سُبحان الله.. قل سُبحان لله يا عبد الله.. لماذا لا تُسبِّح.. ألا نُسمِعُكَ من أمر الله وخلقه عجباً؟..

عبد الله: سبحان الله.. سبحان الله.. سبحان الله.

سُبحان الله يا عبد الله.. إلى أيِّ حدٍ يمكن أن تصغر المادَّة أكثر من ذلك؟ لقد قطعنا الملم إلى ١٠٠٠ قطعة ورأينا قطعة منها تحت الميكروسكوب.. لكنَّنا بعد أن رفعنا الشَّريحة من تحت الميكروسكوب ووضعناها أمام أعيننا لم نر شيئاً.. دقَّقنا النَّظر لم نر شيئاً.. أعدنا التَّدقيق كرَّتين لم نر شيئاً.. كدنا نخلع أعيننا من محاجرها.. لم نر شيئاً.. قُلنا لعلَّها طارت في الهواء لخفَّتها..أعدنا

وضع الشَّريحة تحت الميكروسكوب.. صُعقنا إذ رأينا الخليَّة كما كانت وكأنَّها مملكة عملاقة شاسعة الأقطار.. بها النَّواة متمركزة في وسطها متربِّعة على عرش الخليَّة.. رأينا أشياء كثيرة مختلفة الشَّكل والحجم تَسْبَح حول النَّواة وتدور كدوران القمر حول الأرض وكدوران الأرض حول الشَّمس وكأنَّ النَّواة هي كعبة الخليَّة وتطوف حول سائر مُكوِّناتها في حجٍ وعُمرة لا ينقطعان.. رأينا أشياء لم يخطر ببالنا أن يكون لها وجود.. سُبحان الله.. كيف خُلقت.. كيف تكوَّنت.. كيف تكاثرت.. كيف دقَّ حجمها إلى هذا الحدِّ وكيف تُؤدِّي عملها ببراعةٍ وإتقان في هذا العالم الخفيِّ الذي لا يراه أحد ولا يشعر به أحدٌ من الغافلين عن الله.. هل من شريك لله هُنا؟.. فهذه بعض صنعة الله.. بعض آثار رحمة الله! سُبحان الله.. أعدنا وضع الشَّريحة أمام العين.. لم نر شيئاً ﴿.. فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الملك: ٣، ٤ أيُّ إعجاز هذا؟ شيئ أمام عينيك ولا تراه.. لكن ماذا عن النَّواة.. ترى ممَّا تتركَّب.. وماذا لو تمَّ فرد ما فيها من خلائق جنباً إلى جنب كم سيكون طولها؟ وهل حينئذٍ يمكنني أن أراها؟ كيف تتفاهم أجزاء هذه الخليَّة مع بعضها البعض؟ هل هُناك ثمَّة لغة فيما بينها؟ وهل يعقل أن تتكلَّم هذه الأشياء؟ لكن لو تكلَّمت فبأيِّ شيءٍ ستتكلَّم؟ نحن لا نرى لأيٍّ منها لساناً وشفتين.. وهل يمكنها فعلاً تسبيح الله؟ أم أنَّ آيات التَّسبيح كناية عن خضوع الكون لله؟!

أنا لن أجيبك عن تلك الأسئلة فهذا أمر يطول جداً[1] ولكنِّي سأمضي قُدُماً فيما أنا فيه وستعرف الجواب وحدك إن صبرت معنا إلى النِّهاية.. والآن سأرجع بك إلى الماضي السَّحيق.. هُناك وحيث كانت الأرض في مهدها.. كُرة غير محدَّدة المعالم لم يستقرّ لها شأن.. نحن الآن في زمن الخليقة الأوَّل قبل هبوط آدم من الجنَّة بحوالي ٥ آلاف مليون سنة على التَّقريب.. حيث لا نرى سوى جبال شاهقة وأعاصير وأمطار وصواعق وأصوات الرَّعد وألسنة البرق.. حيث لم يكن مُلوك ولا رؤساء.. خلق الله الخليَّة من تراب الأرض ومعادنها ومائها الذي يغمرها من كلِّ مكان.. خلقها الله من الهيدروجين والأكسجين والكربون والنَّيتروجين والفوسفور والكالسيوم.. الخ لكن هل بدأ خلق الخليَّة بخلق المادَّة الوراثيَّة لها أولاً ثمَّ قامت بعد خلق الإنزيمات بنسخ وبناء كلِّ أجزاء الخليَّة ثمَّ النَّبات.. أم أنَّ الله جمع مادَّتها وصوَّرها ثمَّ صارت خليَّة بالأمر الإلهي كُنْ؟! أم خلق النَّبات كلَّه جملة واحدة ثمَّ تميَّزت بداخله الخلايا؟ والجواب بمنتهى البساطة والتَّواضع العلميّ والاعتراف بالنَّقص والجهل: الله أعلم. وهذه نقطة تحتاج أن نقف عندها مليًّا لنُسبِّح الله من أجلها وننزِّهه عن كلِّ عيب ونقص من جنس ما يعتري المخلوقين.. سُبحان الله وبحمده، سُبحان الله العظيم. لكن هل خلق الله خليَّة واحدة تلك التي سمَّاها العلماء بالبكتيريا أو الأميبا ثمَّ مرَّت بها مئات الألوف من السِّنين بعدها تحوَّلت من نفسها أو بقدرة الله إلى كائنات أخرى ثمَّ طوَّرت لنفسها أجهزة تناسليَّة ثمَّ بمرور الزَّمن انفصلت الأجناس إلى ذكور وإناث ثمَّ بمرور الوقت تحوَّرت وتطوَّرت من النَّباتات باقي مخلوقات الأرض من حيوان وأسماك وطيور وحشرات وصولاً إلى القرد فالإنسان؟ أي باختصار هل تطورت الخليَّة الأمُّ إلى كلِّ مخلوقات الدُّنيا أم أنَّ الله قد خلق كلَّ نبات وكلَّ فصيلة وكلَّ جنس على حدة وخلق كلَّ حيوان وكلَّ طير وكلَّ حشرة خلقاً مُنفصلاً مُستقلاً مُؤقَّتاً بزمنٍ محدَّد؟

ستقول: أجب بسرعة فهذه القضيَّة قضيَّة التَّطوُّر شغلتني كثيراً ولم أصل فيها لشيء.

---

(1) ارجع لكتاب (لماذا لا تسبِّح؟) للمؤلف



وسأجيبك في عجالة لأنَّ قصَّة التَّطوُّر وسُبُل الرَّد عليها تحتاج لكلام كثير لكن نقول وبالله التَّوفيق: أولاً: كون الخليَّة تنقسم من نفسها وتتحوَّل إلى شكلٍ آخر ونوعٍ آخر مختلف هكذا من تلقاء نفسها شيئاً لا يقبله عقل بحال من الأحوال. وإنَّما ذلك قول من يُسمُّون أنفسهم "علماء" هروباً منهم من الاعتراف بوحدانيَّة الخالق، وإنكارا منهم لوجود الإله المدبِّر للأمور على التَّفصيل والإجمال. ونظريَّة التّطوُّر الآن أصبحت في سلَّة المهملات العلميَّة فقد رفضها علماء من نفس نوعيَّة من افترض النَّظريَّة وأثبت العلم تخبُّطها الشَّديد وراحت في خبرٍ كان. وأبسط الأدلَّة على عدم صحَّتها أنَّنا لو تخيَّلنا أنَّ كلَّ نباتات الأرض من فصيلة مُعيَّنة آنذاك تحوَّلت إلى نوعٍ آخر من النَّباتات أو انقلبت إلى نوعٍ من الحيوان لما رأينا الفصائل الأولى أصلاً ولظهرنا في الدُّنيا لنجد الأرض مليئة بصنفٍ واحدٍ من النَّباتات أو بالحيوانات فقط لأنَّ النَّظريَّة تزعمُ أنَّ النَّباتات تطوَّرت عن بعضها البعض فهي تقول بأنَّ النَّباتات ذات الفلقتين تطوَّرت من النَّباتات ذات الفلقة الواحدة وهذا معناه أنَّنا يجب ألا نرى في الأرض نباتاً من ذات الفلقة الواحدة، فلمَّا كان هذا غير مُشاهد إذ أنَّنا نرى كليهما معاً مُنذ عرف الإنسان النَّبات والزِّراعة وإلى يومنا هذا، بل ونرى مئات الألوف من أنواع النَّباتات والحيوانات والطُّيور والحشرات كلُّها في آنٍ واحدٍ، وكلُّ جنس وكلُّ نوع يتكاثر بطريقته الخاصَّة دون أن يتحوَّل إلى كائنٍ آخر دلَّ هذا على فساد هذا القول وبطلانه. أيضاً نحن وعلى مدار حقبة الحضارات التي ترجع لأكثر من ١٠ آلاف عام لم نجد أي كائن قد تحوَّل وثبت تحوُّله إلى كائنٍ آخر.. ولو افترضنا كما يقولون بأنَّ القرود قد تحوَّلت إلى آدميِّين لما وجدنا قروداً في عصرنا أصلاً.. وحيث لم نر أيَّ قرد تحوَّل إلى إنسان يثبت فشل هذه النَّظريَّة.. وهل يعقل أن تكون امرأة جميلة فاتنة ذات عينين خضراوين أو زرقاوين يكون أصلها قرداً يمشي على أربع ويتسلَّق الأشجار.. إنَّ هذا لشيء عُجاب.. ثمَّ لو افترضنا جدلاً أنَّ الإنسان تحوَّل من قرد لكان حريٌّ بالعلماء أن يُنكروا هذه المسألة ولا يهينوا بني الإنسان بنسبتهم إلى حيوان أقل في الدَّرجة والعقل والتَّطوُّر العقليِّ والفكريِّ والمعيشيِّ. والغريب أنَّ العلماء قدَّروا الزَّمن اللازم مروره حتَّى يتحوَّل قردٌ ما إلى إنسان فوجدوا أنَّه أكبر من عمر الأرض بمراحل خياليَّة.. وهذا لا يعني سوى أنَّ خلق القرد قد سبق خلق الأرض وأنَّه خُلِق في مكانٍ ما في الفضاء وتحوَّل أيضاً إلى إنسانٍ في الفضاء قبل هبوطه إلى الأرض وهذا أمرٌ عُجاب. وسُبحان الله العليِّ القدير الذي أنزل إلينا أفضل كُتُبه القرآن من اهتدى بنوره اهتدى.. لقد قصَّ علينا القرآن قصَّة خلق السَّماوات وخلق الأرض، وخلق الشَّجر والحجر، وخلق الأنعام وأشباهها من الدَّواب، وخلق آدم، وخلق الجنِّ والملائكة، وبيَّنت السُّنَّة ما أجمله القرآن.. بل ولقد أظهر العلم الحديث بديع ما ذكره القرآن مُنذ أكثر من ١٤٠٠ عام والمهتمِّين بأخبار الإعجاز العلميِّ في القرآن والسُّنَّة يلقون من ذلك عجباً ليس هذا محلَّ بسطه.. لقد أذهلت نتائج البحوث العلميَّة الحديثة كبار العلماء وأسلم الكثير منهم تبعاً لذلك وهذا نصرٌ عظيمٌ لله ولسنَّة رسوله ﷺ وحتَّى لا نخوض في خلق آدم نعود لأصل الخليَّة والنَّباتات فنقول بأنَّ الله قد خلق كلَّ نوع وكلَّ جنس خلقاً مُستقلاً وهذا الخلق تمَّ على الأرض بعد أن اقتربت قشرتها من مرحلة البرودة التي تصلح معها لاستقبال الحياة الأولى.. ودليلنا على أنَّ الخلق تمَّ مُنفصلاً وتمَّ في الأرض من تربتها ومعادنها ومائها آيات ربِّنا.. اقرأ إن شئت قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٩ وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ.. ﴾ الأنعام: ١٤١

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.. ﴾ الأنعام: ١٤٣



﴿ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. ﴾ الأنعام: ١٤٤
﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النَّحل: ٣- ٨
﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٣ ثم باهى جل وعلا بنفسه بعد سرد هذه الآيات فقال ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النَّحل: ١٧
﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يس: ٣٦
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ يس: ٧١
﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ الصَّآفَّات: ١١
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ الشُّورى: ٢٩
﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ الزُّخرف: ١٢
﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ الرُّوم: ٢٠
ونظائر ذلك في القرآن كثير أمَّا الآية الجامعة التي بيَّنت مصدر خلق النَّباتات هي قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ النَّازعات: ٣٠، ٣١
والتي بيَّنت أنَّ كلَّ شيءٍ خُلِقَ مُستقلاً هي قوله تعالى ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الذَّاريات: ٤٩
وهذه هي خُلاصة القول باختصار في أصل خلق الكائنات الحيَّة على الأرض فمنها خُلقت وفيها تعيش ومنها تُبعث ثانية. أمَّا أصحاب الشَّطحات العقليَّة الذين يبعدون النَّاس عن الحقِّ وينأون بأنفسهم عن الإيمان بالإله الأوحد بقولهم: إنَّ الصُّدفة هي التي خلقت أو أنَّ بذرة الحياة الأولى جاءت الأرض من كوكب لآخر.. وهذه في ذاتها نُكتة من وجوه لعلَّ أولهَّا أنَّها تأتي من علماء على أعلى مُستوى من العلم وحملة لأعلى الدَّرجات والشَّهادات العلميَّة.. وثانيها أنَّ بذرة الحياة
قد جاءت من كواكب هُم أنفسهم عاجزون عن إثبات الحياة في تلك الكواكب.. وثالثها كون هُناك بذرة للحياة ولو خليَّة واحدة بدائيَّة فهذه دليل على أنَّ الخليَّة الواحدة قد خُلِقَتْ وإلا فمِنْ أين جاءت تلك الخليَّة؟ إنَّهم هربوا من إثبات الخالق ومن ثمَّ الاعتراف به، وفي الوقت ذاته لم يُبيِّنوا لنا كيف ظهرت الحياة على الأرض.. ثمَّ لو أنَّ للحياة بذرة وحيدة لماذا لم تأتِ قبل تلك الألوف من السِّنين؟ ومَن الذي جاء بها وتركها في الأرض وعاد في أغوار الفضاء السَّحيق ولماذا؟ أعتقد أنَّه بذلك يظهر تخبُّطهم الشَّديد لأنَّهم أقحموا أنفسهم في الحديث عن عالم الغيب بلا دليل أو سُلطانٍ مُبين.. يقول الله ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ الكهف: ٥١ ونحن نردُّ على الذين يتخيَّلون لنا كيف تحوَّلت الخلائق بعضها عن بعض حتَّى ظهر الإنسان بقول الله سُبحانه حكايةً عن الذين نسبوا لله البنات ونزَّهوا أنفسهم عنها ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۞ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۞ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ الزُّخرف: ١٥ . ١٩ فنقول لهؤلاء الملحدين: أشهدتُّم

خلقهم؟ أشهدتُّم خلقهم؟ ستُكْتَبُ شهادتكم وستُسْألون. فبداية الخلق من الأمور الغيبيَّة التي لا ينبغي لأحد أن يتكلَّم فيها إلا بدليلٍ من كتاب الله أو سنَّة نبيِّه ﷺ أو أثرٍ صحيح. أمَّا هؤلاء فلم يهتدوا إلى الحقِّ فضلُّوا ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: ٣٥، ٣٦

ولنعد إلى تأمُّلاتنا حتَّى لا يتشعَّب الموضوع إذ نحن مأمورون بنصِّ الكتاب بالبحث والتَّأمُّل في الخلق كيف بدأ لاستخلاص العبر، وتعظيم قدر الله جلَّ وعلا ومن ثمَّ تسبيحه وتنزيهه عن كلِّ مظاهر النَّقص التي ستتبيَّن لدينا بعد التَّأمُّل.. يقول الله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت: ٢٠

وليس المقصود أن نتأمَّل في كيفيَّة خلق الله للمخلوقات وإنَّما نتأمَّل في شكلها الأوَّل كيف كان وإلى أي شيءٍ صار وأنَّها لن تخلد في الأرض بل انتهت إلى ما يُسمُّونه بالحفريَّات وسجلَّات الخلائق لنعلم أنَّ نهايتها الحتميَّة هي الموت والذي هو سُنَّة من سُنَّن الله في خلقه.. وأنَّنا بعده سنُبْعَث من جديد لذا يقول سُبحانه ﴿..فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ.. ﴾ وكلا الأمرين يستدعي تسبيح الله عزَّ وجلَّ لكونه حيًّا لا يموت ويَخلق ولا يُخلق. لكن لو افترضنا أنّ الله قد طوَّر المخلوقات الأوُل فلِمَ ترك لنا المخلوقات البدائيَّة كما هي أي لِمَ لَمْ نر كلَّ مخلوقات الأرض بذريَّة وذات أزهار؟ لماذا تُركت الفطريَّات والكائنات الدَّقيقة والطَّحالب والبكتيريا على اختلاف ألوانها وأشكالها فضلاً عن الفيروسات تلك المخلوقات العجيبة الحيَّة في الحيِّ والميِّتة في الميِّتِ! هل نسيها الله، أو نسي أن يُعدِّلها؟ . تعالى سُبحانه عن ذلك عُلُواً كبيراً .. أم أنَّه قد تركها لِحِكَمْ وليس لحكمة واحدة؟

نقول وبالله التَّوفيق: أولاً: لو أنَّ الله قد أخفى الكائنات الدَّقيقة وأبادها فبأيِّ شيءٍ كُنَّا سنصاب بالأمراض ونُبْتَلَى؟ لو أخفاها المولى عزَّ وجلَّ كم من الفوائد والمنافع كُنَّا سنخسر بفقدانها..؟ لو أنَّه حوَّرها لما استطعنا صنع الجُبن ولا الزَّبادي ولا تخمير السُّكَّريَّات لإنتاج الخلِّ، عديد المنافع.. فضلاً عن الخمر التي بتحريم شربها يمحِّصُ المؤمن من المسلم العاصي.. أيضاً لو لم توجد تلك الكائنات لما هُضِم الطعام في أمعائنا.. إنَّ هذه الجيوش الجبارة تملأ أجسامنا وهي بالملايين بعضها سلَّطها الله على بعض ليقتله ويفترسه في أمعائنا وأفواهنا دون أن نشعر بذلك لحكمة.. وبعضها قد سلَّطه الله علينا ليُمْرضنا لحكمة، وبعضها سخَّرها لنا لنفعنا لحكمة، وبين هذه الحكم أو تلك يمحِّص الله المؤمن من الكافر والمطيع من العاصي ليرى صبر المبتلى وحمده، ويرى شكر المنعم عليه وحمده.

ثانياً: لو أنَّ الأرض خالية من الفيروسات والبكتريا مثلاً لما أصيب نبات ولا حيوان ولا إنسان بأيِّ مرضٍ كان، ولما اهتمَّ أحدٌ بالعلم ولما اهتمَّ أحد بتطوير المحاصيل ومن ثمَّ زراعة النَّافع وعزل المصاب.. لأنَّه في حالة فقدانه الكائنات الدَّقيقة يفترض أن تخرج الأرض ثمارها كلَّها سليمة في حجم عملاق تكفي النَّبتة الواحدة منه الفئام من النَّاس.. حينئذٍ سينتشر الكسل ويقلُّ الكدح من أجل البقاء، أمَّا كون المحصول يُصاب بمرضٍ كتفحُّم سنابل القمح مثلاً تقوم قائمة المزارعين والفلَّاحين من أجل عزل النَّباتات المصابة وتجنُّب تكرار مثل هذه الكارثة، وتبدأ العقول تفكِّر والمعامل تنشأ، ويتم التَّهجين لتحسين مُستوى وجودة وإنتاج النَّباتات لتقاوم ما سخَّره الله من أجل أن يكدح الإنسان. ومن جانبٍ آخر لو لم يصب الإنسان بهذه الكائنات فهل كانت ستقوم للطبِّ قائمة؟ إنَّ الحياة شبكة مُتكاملة ومُترابطة بحكمة بالغة تعجز آلاف السَّاعات عن تبيانها، ولنضرب المثال..

فِطْرٌ ما سبَّب مرضاً لشخصٍ ما.. هذا الشَّخص يحتاج لعلاج وإلا مات.. لكن حكمة الله أن جعل العلاج إمَّا بتناول نوع آخر من الفطريَّات في أي صورةٍ أو مُستخلصٍ كانت.. أو في أزهار نباتٍ مُعيَّن أو جذور صنف آخر.. حينئذٍ لابدَّ وأن يكون هذا النَّبات مُتوفِّر قُبُلاً ومُعَدّاً لاحتمال إصابة الإنسان بهذا المرض وهلمَّ جرَّا.. هذا يزرع العلاج وهذا يعالج به وآخر يزرع الغذاء لقوامة صُلب الإنسان وغيره يمدُّه بالفاكهة وذاك بالنَّبات ذات العطور المبهجة للنَّفس والشَّارحة للصَّدر وغيره يزرع نبتة لها أزهار تسرُّ النَّاظرين لتكون آية تدلُّ الحائرين على الله وعلى قدرته وبديع صنعه فيُسبِّحونه لكمال صفاته وجمال صنعته وحكمته في تقديرها وخلقها. وبينما صاحبنا في تفكيره يكون الفِطْرُ قد طوَّر المادَّة الوراثيَّة له ليقاوم الدَّواء فتنجح إحداها في النَّجاة من تأثير الدَّواء وتتكاثر لتصيب بدورها إنسان آخر يحتاج لدواء من نبات أو عشب غير الأوَّل أو مُستحضرات كيميائيَّة أصلها إمَّا من عناصر التُّربة أو صُخور الأرض أو نباتها وسُبحان الله تأمَّل كيف سخَّر بعض النَّاس لبعض وهي حكمةٌ بالغة فأين النَّقص وأين الخلل في المِلْك؟

ثالثاً: لو تركها الله لكن للاعتبار لتنظر يا ابن آدم يا من تتمتَّع بنعم الأرض والسَّماء.. تنظر إلى أزهار مُبهجة ذات ألوان شتَّى.. لكأنَّ الله يقول: كان من الممكن أن لا نخلقها على هذه الصُّورة، وتكون مثل نبات كذا الذي تركناه لك كعيِّنة ونموذج للخلق الأوَّل.. هل تراه؟ ها هو دون أزهار برغم أنَّ له ساقاً خضراء جميله وأوراقاً خضراء جذَّابة وتقوم بنفس عمليَّة البناء الضَّوئيِّ التي يفعلها النَّبات ذات الأزهار. ترى يا عبد الله هل كنت ستسعد لو كانت الأرض بلا أزهار؟ أكان يرضيك ألا يجد النَّحل أزهاراً يمتصُّ رحيقها ليصنع لك منه عسلاً يخرج منه خير غذاء وخير شراب وخير دواء؟! أكنت تحبُّ أن يمتصَّ عصارة نباتيَّة نيِّئة ليصنع لك منها سُمَّا زُعافاً يقضي عليك؟ تأمَّل تلك الأسماك في البحار ذات الألوان الرَّائعة التي يعجز بيانك عن وصفها من شدَّة حُسنها.. هل خلقناها لك عبثاً؟ هل خلقناك لتلعب أو خلقناك لتتعب أم خلقناك لتتمتع بالنِّساء على الفُرُش وتعيث في الأرض فساداً.. فتأمَّل رسائل الله لعقلك، إنَّها رسائل تُقرأ بالعقل يفهمها كلُّ لبيب، مضمونها عبدي (كان من الممكن)

انظر لتلك الدُّودة في الأرض.. سخَّرناها لك لتصنع لك منها طُعْماً تصيد به الأسماك لتأكلها.. انظر كيف تعيش في التُّراب! وكيف تأكل التُّراب..! أكنت تحب أن تكون مثلها.. تعيش في الظَّلام وتنام في الظَّلام؟ صحيح أن التُّراب لديها كالعسل أو الَّلحم عندك لكن هل كنت تحب أن تكون دودة؟ هل تتبعتها مرَّة لتنظر في دودةٍ من نوعٍ آخر ممَّا تراه على الأوراق فتتأمَّل كيف هي صنعتنا وصبغتنا؟ من علَّمها أن تأكل الورق ومن يسَّر لها تحويل غذائها إلى شرنقة تدفن نفسها فيها ثمَّ من علَّمها أن تحوِّل نفسها بأن تنسلخ عدَّة مرَّات من جلدها لننشئها خلقاً آخر يثقب الشَّرنقة ويخرج إلى النُّور؟ سُبحان الله لقد كانت دودة تعيش في الهواء وتتنفَّس منه وتشعر بحرِّ الشَّمس وترى ضوءها ينعكس على صفحات ورقة القطن فما الذي جعلها تدفن نفسها في قبرٍ مُظلمٍ مُوحِشٍ لا أُنس فيه ولا مُتعة فيه ثمَّ تثقبه وقد خرجت فراشة كعروس زيَّنوها لزوجها ليلة القدر؟ انظر كيف أريناك دقَّة الصَّنعة وبراعة الخلق وطلاقة القدرة.. قل سُبحان الله ما أعظمك من إله وانج بنفسك.. وأعد النَّظر في الدُّودة تجد نفسك تشمئز وتنفر منها لكن انظر إليها بعد أن صارت خلقاً آخر فراشة لها أجنحة تطير بها طليقة في ملكوت الله ربِّ كلِّ شيءٍ ومليكه.. أجنحة لو تأمَّلتَ بديع صنعها وكيفيَّة صنعها ومدى جمالها وتناسق ألوانها لرأيتنا رسمنا لك لوحة حيَّة تدلُّك علينا وتقرِّبك إلينا زُلفى.. يا ابن آدم.. أما زلت مُعْرِض ومُتردِّد ولآياتنا تفنِّد؟ قل سُبحان الله وانج بنفسك.. فمن أجلها خلقتُ سماواتي وأرضي.. ومن أجلها خلقتك.. كلُّ شيءٍ سبَّح ويُسبِّح ولا زلتَ أنتَ تفكِّر.. مَنْ أسبِّح؟ كلُّ ذرَّةٍ فيك تُسبِّح.. روحك

تُسبِّح.. نفسك تُسبِّح لكن فمك يتكبَّر.. لقد جعلتكَ تُسبِّح رغم أنفك فأنا غنيٌ عنك وعن تسبيحك فلن يزيدني تسبيحك في مُلكي شيئاً ولن ينقصني إعراضك في مُلكي شيئاً.. فأنت تُسبِّح.. رغم أنفك تُسبِّح.. يا ابن آدم.. ارجع إلى جناحٍ خلقته في ظلمةٍ وتأمَّله بعد أن رآه النُّور ورأى النُّور.. ثمَّ اعقل وتأمَّل تعقل كيف تحوَّل التُّراب في جوف الأرض إلى نبات.. ألم يكن التُّراب أملاحاً ومعادن وصخوراً فتَّتُّها بالماء والهواء.. ألا أقدر أن أفتِّتك أنت الآخر؟ لكنَّا نصبر عليك لأنَّا لم نخلق خلقاً مثلك.. سخَّرنا لك كلَّ شيء.. فلم تع من ذلك أي شيء.. الشَّمس والقمر والنُّجوم وما في البرِّ والبحر بل وما في السَّماوات والأرض كلُّها مُسخَّراتٌ لك بأمري. ارجع للتُّراب يا ابن التُّراب وتأمَّل كيف يتحوَّل التُّراب إلى ورقةٍ خضراء تسرُّ النَّاظرين تصير غذاءً لدودة أيضاً خلقناها من ذلك التُّراب.. ليصبح لديك تراب يأكل تراب ليصير في النَّهاية فراشة ذات أجنحة مُلونة ومبرقشة عناصرها التُّراب وأصلها التُّراب.. تطؤها بكلِّ غطرسة واستكبار لتموت ضحيَّة إعراضك عنَّا وتصير بعد أن نحلِّلُها ببكتريا من تراب إلى.. أتدري إلى ماذا تصير؟! إلى تراب.. هذه هي قصة الخلق يا ابن آدم، أرأيت كيف قلبنا لك التُّراب فأريناكه عجباً عُجاب.. هو نفس التُّراب أريناك إياه تراباً ثمَّ ورقة خضراء ثمَّ دودة صفراء ثمَّ قبراً مُظلماً ثمَّ حشرة جميلة بديعة ثمَّ بكتريا ثمَّ تراباً ينزل عليه الماء وهو جُزء من التُّراب ليتحوَّل التُّراب إلى أتربة من مخلوقاتٍ شتَّى.. أرأيت بعد هذا لو لم نريك الدُّودة والفراشة أكنت مُصدِّقاً أنَّ الفراشة أصلها دودة والدُّودة جاءت من بيضةٍ جاءت من ذكر وأنثى الفراش وأنَّ هُناك بعثاً ونُشُوراً وإعادة خلق؟ لو قلنا لك بأنَّه كان يمكننا أن نخلق دودة تأكل أوراقاً ثمَّ نحوِّلها إلى فراشةٍ بدلاً من أن تفقس البيضة إلى فراشة مُباشرةً كنت ستقول آهٍ يا ربِّ لو خلقت لنا هذا.. لو لم أنوِّع لك في ألوان الأزهار وأشكال الأسماك والطُّيور أما كنت قائلاً يوماً: آهٍ لو خلق الله زهرة بشكل كذا لكانت أجمل من هذه.. ولو كان عندي طير يُغرِّد بدلاً من هذه الغراب.. آهٍ لو خلق الله لنا كائنات شرسة تخدمنا لنحمي أنفسنا وبيوتنا عند النَّوم.. لماذا لم يخلق الله مخلوقات عملاقة.. أم أنَّه لا يقوى إلا على خلق الإنسان والحيوان والطُّيور؟ فها أنا يا ابن آدم قد علمتُ ما في نفسك قبل أن أخلق نفسك وفرغت كلَّ حججك ووفَّرتُ لك ما كنت ستتمنَّاه لو لم أوفره لك.. ها قد نوَّعت لك في الخلق حتَّى لا تسأل عن شيء لِمَ لَمْ يخلق كذا.. ها قد أريتك الخلق على صورته الأولى لتعلم كيف كنت ستُعذَّب لو لم أهيِّئه لك وأسخِّره لك.. فها قد أريتك الدُّودة وأريتك الفراشة.. وها قد أريتك الأزهار الصَّفراء والحمراء والمبرقشة وها قد أريتك أوراق النَّبات الخضراء والصَّفراء والبيضاء والحمراء وما بينهما.. وها قد أريتك ما له ساق وما ليس له ساق.. ها قد أريتك ما له جذور وما ليس له جذور وها قد أريتك ما يعيش في الماء.. وما لا صبر له عن الماء.. وما يقتله الماء.. وها قد أريتك ما يسبح في الماء، وما ينبت فيه وأريتك ما يطير وما يغوص.. وما يبيض وما يلد.. وما لا يفعل أيًّا منها.. ها قد نوَّعتُ لك في خلقي فهل نوَّعت أنت في عبادتي.. هل حمدتَّني نهاراً وسبَّحتني ليلاً وسجدتَّ إليَّ فجراً واستغفرتني ظُهراً وتأمَّلت في مُلكي عصراً؟ ها قد أريتك هياكل عظميَّة عملاقة لمخلوق عظيم سمَّيتموه ديناصورات، ولو تركته لقلتَ: آهٍ يا ربِّ لو لم تخلقه!!.. فها أنا قد خلقته لأبين لك طلاقة قدرتي، وها قد قطعت دابره رحمةً بك ولحكمةٍ لا تعلمها.. علمتها أنا بل وقدَّرتها وكتبتها قبل أن أخلق سماواتي وأرضي بخمسين ألف سنة.. ها قد خلقت لك طيراً يُغرِّد وطيراً مُزعج الصَّوت لتتأمَّل طلاقة القدرة، فالخلَّاق الذي يخلق الشَّيء وضدَّه إذ لو لم يستطع سوى خلق أحد الضِّدَّين لكان هذا نقصاً فادحاً فسُبحاني جلَّ شأني.. وخلقتُ لك كلاباً تتخذ منها حرساً وصُيَّاداً فتأمَّل وتأمَّل وتأمَّل حتماً

ستصل إلينا فكلُّ شيءٍ خُتِم بخاتمنا ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ..﴾ النَّمل: ٨٨ والآن يا عبد الله وقبل أن نتركك نعيد لك قول الشَّاعر:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظـرْ = إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيـكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصـاتٌ = بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ = بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيـكُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا خَيْرُ الْبَرَايَـا = إِلَى الثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ الْمَلِيـكُ

وأخيراً.. مَنْ يملك هذا الخاتم؟

أعتقد بعد ما تقدَّم أنَّك صرت على يقينٍ من أنَّ الجواب عن السُّؤال: مَنْ يملك هذا الخاتم؟ أنَّه الله ولا شكَّ ولا ريب.. فمن يملك الأرض ومن يملك السَّماء ومن يملك المجرَّات وما كبر ومن يملك الذَّرَّات وما صغر ومن يملك الإلكترون وما دونه ليس سوى الله هو مالِك كُلِّ شيء وخالق كلُّ شيء والقاهر فوق كلِّ شيء والمهيمن على كلِّ شيء والقائم على كلِّ نفسٍ وعلى كلِّ شيء سُبحانه هو الحيُّ القيُّوم فهو الظاهر فوق كلِّ شيء. وليس فوقه شيء سُبحانه، وهو الباطن دون كلِّ شيء فليس دونه شيء سُبحانه، وهو الأوَّل فليس قبله شيء سُبحانه، وهو الآخر فليس بعده شيء سُبحانه، أينما فتَّشت في الكون وجدتَّ الله في كلِّ شيءٍ له أثر وآية وعلامة تدلُّك عليه بحسب قدرات عقلك وقلبك وهو أعظم ممَّا تتخيَّل لا يحصي أحد وصفاً له مهما بلغ من التَّأمُّل والتَّعبُّد وشُهود نُعوت جلاله سُبحانه كما أنَّه لا يحصي أحدٌ ثناءً عليه إلا كما أثنى على نفسه سُبحانه ذو الجلال والكمال والمجد والعظمة والكبرياء لولا قيُّوميَّته على كلِّ شيء لفسد الكون ولاختلَّ نظامه، سُبحانه الحيُّ القيُّوم لذا كان الدُّعاء باسمه الحيِّ القيومِّ دُعاء باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطي فمن حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣) وفاتحة آل عمران ﴿ الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران: ١، ٢)[١]

ومن حديث أبي أمامة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: اسم الله الأعظم في سُور من القرآن ثلاث: في البقرة و آل عمران و طه)[٢]

لأنَّها صفة دقيقة جداً لا يعرفها ولا يفهمها إلا العالمون وكأنَّك تسأله وتتوسَّل إليه قائلاً: يا من أنت على كلِّ شيءٍ مهما كبر ومهما صغر قيِّمٌ وقدير ومُهيمن ومالِك افعل لي كذا.. ويا من هو قد وضع دليل ألوهيَّته وربوبيَّته على كلِّ شيءٍ وفي كلِّ شيءٍ في ظاهر كلِّ شيءٍ وباطنه وأوَّله وآخره افعل لي كذا، فلمَّا كان الله حيًّا لا يموت زادت ثقتك في ربِّك ويقينك أنَّه على الدَّوام

---

[١] **صحيح**: رواه الترمذي في سننه ٣٤٧٨ وأبو داود في سننه ١٤٩٦ وفي صحيح الجامع ٩٨٠ وحسنه الألباني رحمه الله حسنه لغيره في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٦٤٢ ورواه الدرامي في سننه ٣٣٨٩ وحسنه إسناده حسين سليم أسد.

[٢] **حسن**: انظر السلسلة الصَّحيحة ٧٤٦] قال الألباني في الصحيحة تحت الحديث: قال القاسم أبو عبد الرحمن: فالتمست في { البقرة } فإذا هو في آية الكرسي: { الله لا إله إلا هو الحي القيوم } وفي { آل عمران } فاتحتها: { الله لا إله إلا هو الحي القيوم } وفي { طه }: { وعنت الوجوه للحي القيوم }. (فائدة): قول القاسم أن الاسم الأعظم في آية: { وعنت الوجوه للحي القيوم } من سورة { طه } لم أجد في المرفوع ما يؤيده فالأقرب عندي أنه في قوله في أول السورة { إني أنا الله لا إله إلا أنا.. } فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة.



وأبد الآبدين، قيُّوم على كلِّ شيءٍ بما في ذلك نفسك الضَّعيفة فتطمئنُّ للإجابة ولا تعجل وكأنَّك تقول له يا من هو حيٌّ قيُّومٌ أسبغ عليَّ من قوَّتك لضعفي ومن عزَّتك لذلِّي ومن مُلكك لكلِّ شيء لهواني على النَّاس.. فإن كنت سُبحانك على الكون العظيم والعرش العظيم قادراً فأنت على مغفرة ذنبي وشفاء مرضي وغناي بعد فقري ونصرتي بعد هزيمتي وتلبية حاجتي أقدر وأقدر. سُبحانك يا ملك الملوك.. سُبحانك وبحمدك.. سُبحانك وبحمدك.. سُبحانك وبحمدك.

أخي الكريم

أظنُّك عرفت الآن من الملِك الحقّ والمستحقّ للعبادة ممَّن هو مملوكٌ بحق.

سُبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

وكتبه: الرَّاجي عفو ربِّه /

إكرامي المحلاوي

مصر . كفر الشَّيخ . أبو طبل

مساء الأحد

٢٩ ربيع آخر ١٤٣٢هـ، ٣ إبريل ٢٠١١م

ت. ٠١٩٨٧٩٠٩٨٨

٠٤٧/٣٢٣٣٤٠٧





فهرس الموضوعات



